شَرُود أبيض

المركز الأول في مسابقة المجلس الأعلى للثقافة

محمد سليم شوشة

obeikan.com

الكتـــــــاب: شرود أبيض
المــؤلـــــف: محمد سليم شوشة
تصميم الغـــلاف: أ/ مروة فتحي
المراجعة اللغوية: أ/ سلام عيدة
رقـــم الإيـــداع: 2015 / 5085
الترقيــم الدولــي: 5 - 021 - 779 - 977 - 978
الإخــراج الفنـــي: مؤسسة إبداع للترجمة والنشر والتوزيع

المدير العام: عيد إبراهيم عبدالله

جميع الحقوق محفوظة

وأي اقتباس أو تقليد، أو إعادة طبع، أو نشر دون موافقة قانونية مكتوبة يعرض صاحبه للمساءلة القانونية، والآراء والمادة الواردة وحقوق الملكية الفكرية بالكتاب خاصة بالمؤلف فقط لا غير.

العنوان: 6 ش التحرير، الدور 18، أمام محطة مترو البحوث، الدقي، الجيزة
هاتف: 0237621688 - موبايل: 01142050403
الموقع الإلكتروني: www.prints.ibda3-tp.com
البريد الإلكتروني:info@ibda3-tp.com

obeikan.com

شَرُود أبيض

روايـــــة

محمد سليم شوشة

إبداع
Ibdaa
للنشر والتوزيع والترجمة

obeikan.com

obeikan.com

الإهداء

إلى أبي دون ندّ أو شريكٍ

أُهدي هذا العمل

obeikan.com

obeikan.com

تعريف

الشَّرود في المُحارِب يلعب على طريق الجِمال، يقفز في النواحي والطُّرقات فرِحًا بلونه الأبيض النقيّ، الشَّرود هو ذَكَرُ الضَّأْن الصغير، وحين يكبر قليلاً يُصبِح خروفًا يجوز ذَبْحُه عقابًا على قفزه المُستمرّ وإعجابه بنفسه، هو غالبًا لا يَسير بانتظامٍ مع قطيع الضأْن الكبير الذي يخرج ليرعى في الأراضي الزراعية التي فَرِغَت مِن الذُّرة أو البرسيم وتركتْ حتى يتمَّ تجهيزُها للموسم التالي مِن الزَّرْع، لم أعملْ برعْيِ الغنم أبدًا، وتمنَّيْتُ أنْ أكون راعيًا للغنم وبالأخصِّ بعد أنْ عرفتُ أنَّ النبي محمد - صلى الله عليه وسلم - عمِل برعْي الغنم وهو طفلٌ صغيرٌ، وزادتْ رغبتي هذه مع الأيام حتى أرى الشُّردان البيضاء الصغيرة،

obeikan.com

أظنُّ أنَّ كلمة الشرود مُشتقّةٌ مِن الفعل شَرَد على وزن فَعول. والشَّرود هو الأكثر عرضةً للاختفاء في الزُّروع الطويلة فيأكله الذئب، حسبتُ قديمًا أنّ الذئب يفضِّله لأنَّه لا يُقاوِم وينخدع سريعًا وأنَّ لحمه ألذّ مِن الخراف الكبيرة، فيطمع فيه الناس ويطمع الذئب، بقيتْ صورة الشَّرود الأبيض النظيف مرضًا يُسيطِر على خيالي وقت الحزن ووقت الأفراح، وقبل النوم وبعد اليقظة مِن الأحلام.

تتغيَّر الشردان مع الأيام وتصبح خرافًا مسؤولةً، تَسير بانتظامٍ مع بقية القطيع، وتَمْتَثِل لعصا الراعي وإشاراته، وتتزاوج لتستمتعَ بعدها بقليلٍ بأبنائها مِن الشردان الصغيرة التي تملأ الظلَّ تحت شجر السنط على طريق الجِمال بالغرور والتعالي الذي يتناثر مِن صُوفِها اللامع الجميل. الشَّرود الصغير يتباهى على الجَمَل الثقيل ولا يعجبُه أنّه مِثْلُ جبلٍ راسخٍ يمرُّ مرَّ السحاب، يشعرُ الناس به ثابتًا لا يتحرَّك إلّا بتحرُّك الأيام، الجِمال على الطريق الذي يَدْخُل المحارب ويربِطها بالأرض تُشبه العُقَد أو سُبْحَة جدّي الذي لم أرَه، الطريق مثلُ خيطٍ ينتظم حبّاتِ العِقْد مِن الجِمال المُحمَّلة بالبُوص والحطب والغِلال والتِّبن، انفرطَ العِقد مع الأيام

وانفرطتْ معه أرواح الطيِّبين مِن حولي، الجِمال هربتْ في الحقول أو تاهتْ في الزروع الطويلة والأحباب يسكنون بجوار مقام الشيخ في مَقابر المحارب على الجانب المُقابل للبيوت ويَفصِل بينهما طريقٌ ترابيٌّ يُحاصِره شَوْك العقول المرِّ الذي يَفصِل بين الطريق والأرض، والجِمال تأكل مِن العقول مثل الأغنام تمامًا، ولم أرَها يومًا تأخذها العزِّة بالإثم فتنْفَلتُ إلى الزروع المُمتدّة على يمين الطريق لتتزوَّد مِنها.

في مدَّة حُكْم مبارك الأولى، هَجَمَت المَرافق والخَدمات على المحارب حتى ضاعتْ ملامحُها التي أعرفها جيدًا، وتغيَّر طريق الجِمال تمامًا، تمَّ رَصْفه وسفلتَتُه بالكامل، وأُزيل شجر السنط، وعلى شريطِ شَوْك العقول في الجانب الأيمن جاء الغُرباء ليَحفُروا شريطًا يخبِّئون فيه كابلات التليفونات ومواسير المياه، وتراصَّتْ فوقها أعمدة الإنارة التي حوَّلتْ ليلَ السَّمَر إلى ظهيرة، فبهتَتْ الحكايات القديمة عن الجانِّ والعفاريت، وتبدَّلتْ بحكاياتٍ جنسيةٍ وقصصِ الخيانة الزوجية، وحكايات المال وشراء الأرض وقراريط المباني وشِجار الطامعين والطامحين.

وحْده ظلَّ الشَّرود الأبيض يركض معنا خلف سيارات الرّش التي انتظم مَجيئها، نصنع لعبًا مِن بِكَرِ الخياطة القديم وغطاءات الكولا والبوص وجريد النخل وزجاجات الشربات الفارغة، وبدأتْ سيارات الرُّبع نَقْل تأخذ مكانها على طريق الجِمال مثل سياراتنا الصغيرة التي نلعب بها وحلَّت الكريتات بدل الحمير، سيارات الرُّبع نقل تذهب إلى المركز وتُحمِّل الشمام والقتّ والخيار والطماطم، وذهبت الجِمال بالغِلال مِن القمح والذرة وذهبتْ بقناطير القطن والفول البلدي والكزبرة، اختفت زروعٌ كثيرةٌ مثل القطن والفول البلدي الذي عرفتْه في القاهرة باسم الفول الحراتي، وله طعمٌ غيرُ طعمِه القديم اللذيذ الذي ظلَّ في عقلي مُجاوِرًا لِما بقي مِن الذكريات الجميلة.

اختفت الغِلال أو كادت، وانتشرت الزروع سريعةَ العائد الماديّ قصيرة العمر في الأرض، وكَثُر استخدام المُبيدات، وتلوَّث الهواء فهربت الجِمال مثلما هرب ظلّ شجر السنط والخروع وتبخَّر في حرِّ الصيف. كميل يخبرني في التليفون بحِيَلِ أهل المحارب بعد رشّ المبيدات وأنهم يخبِّئون العلبة الفارغة في الأرض، يدفنونها في الأرض حتى لا يعرفها

جيرانهم فيستخدموا النوع نفسه، ظَنًا أنّه الأجدى للزرع، يخبرني بحيلهم وأطماعهم مثلما أخبرني بمرض خليفة بالسرطان ومرض عبد الباسط بالكبد وموتهما وغيرهما بفيروس سي وسرطان الغدة الدرقية.

في السابق تابعتُ التغيُّرات بقلبٍ باردٍ، وقدرةٍ على الرصد، وقدرةٍ على إعادة سرد الأحداث وحكايتها على الناس وعلى نفسي، فجأةً تغيَّر كلُّ شيءٍ بشكلٍ يكاد لا يصدِّقه كلُّ الناس وليس أنا فقط، في الصورة العامّة لمصر وفي الصورة العامّة للمحارب وفي حياتي الشخصية، بدا العالم كلّه مبهورًا بالأحداث، أصبحتْ أحداث العالم كلّه تشبه التسونامي الذي ضرب إندونيسيا في ٢٠٠٤، صارت الأحداث مثل تسونامي يوميٍّ لا يَمَلُّ مِن مُفاجأتي، تسونامي في السياسة، تسونامي الموت، تسونامي المواليد، مواليدُ جديدةٌ لا أعرف شيئًا عنها، جيلٌ جديدٌ مِن الخِلْفة الغريبة المعدَّلة. حدثت في مصر ثورةٌ شعبيةٌ، هكذا قال عنها الجميع. استمرَّت المظاهرات وكأنَّ بَكَرَة الخيط بدأت في الكرِّ، بدأتْ تنفرط بأسرارها وألوانها التي لم نكنْ نراها.

في المحارب هجمت المياه الجوفيّة بشكلٍ غريبٍ عقب ثورة يناير مباشرةً، المياه والرطوبة في البداية كانت تُغرِق أغلب البيوت المُنخفضة، وأصحابها مُنهَكون بشفْط المياه كأنَّهم يشفطون دهونًا تشلُّ حياتهم وحركتهم وتقلِّل نومهم، البيوت تظلِّلها كآبةٌ تحوَّلت مع الأيام إلى لامبالاةٍ وتبلُّدٍ شديدٍ، الناس صاروا آليين لا يحسُّون، لا ينشغلون بمتعةٍ روحيّةٍ، فقط أطماعهم تزيد دون مُبرِّرٍ، ويتشاجرون كثيرًا على ما يستحقُّ وغيره، والأغلب أشياءُ لا تستحق الشجار، سقط أول قتيلٍ في المحارب برغم كلِّ تاريخها، لم يحدث قط أنْ سقط قتيلٌ في المحارب أو كان للمحارب نصيبٌ في الثأر مثل كثيرٍ مِن البلاد المحيطة بها في شمال الصعيد، حكايةٌ خائبةٌ بين شابَّيْن اختلفا فتشاجرا، فانجرَّت عائلتاهما إلى المشاجرة بغير عقلٍ وبجاهليةٍ وغباءٍ فضرب أحدهم شابًا على رأسه بنبّوتٍ فسقط قتيلاً، وسط ذهولٍ وتوقُّفٍ للمتشاجرين، شُلَّتْ الأيدي والعقول فجأةً، ومِن يومها وعائلة القتيل تخطِّط وتترصَّد لأخذ الثأر مُضاعَفًا كما أعلنت، أنها ستقتل اثنين مِن أفضل رجال العائلة الأخرى مقابل ابنهم.

obeikan.com

أمَّا أنا، فتغيَّرتْ حياتي كذلك فجأةً وصارت مثل التسونامي، ولكني صرتُ لا أستطيع أنْ أراها بالدم البارد نفسه الذي أتابع به ما يحدث لغيري، أو حتى لوطني.

obeikan.com

obeikan.com

-١-

شاليه مُعلَّق في سماء الشمال

مُعظم الشاليهات خاويةٌ، فما زِلنا في النصف الأول مِن مايو، فقط بعضُ العُمّال الذين يقومون بأعمال الصيانة ويرعَوْن الجَنائن، ويغسِلون الورود والإسفلت مِن تراب العواصف التي تُداهِم القرية كثيرًا في الشتاء والربيع. اتصلْتُ بخالد فجاءني بالمفتاح ولم يتعجَّب لأني بمُفردي، وتمنَّيْتُ أنْ يسألني هل سيأتي معك أحدٌ، لكنّه لم يفعلْ، فتأكَّدتُ أنه يراني شخصًا غريبَ الأطوار يأتي إلى الصمت والهدوء بغير أُنثى جميلةٍ تضاحِكُه وتلاعِبُه وتكسِر معه مللَ البرامج الكرويّة التي اعتاد مُتابعتها، وحزَّ في نفسي أنه لا يراني بدويًا مثله مِن أصولٍ كانت تَرعى الغنم

obeikan.com

وتشرب ألبان الماعز في المساء وتبيت وعيونها على زرائِبِها خشية الذئاب أو الشاردة، برغم أني كنتُ في كلِّ جلسةٍ معه أذكِّره بهذا الأصل وهؤلاء الجدود الذين لم أرَ مِنهم أحدًا، كلّها حكاياتٌ كرَّرها عليَّ أبي حتى حفظتُها.

دخلتُ الشاليه وأنا لا أعرف ما الذي يجب فعلُه أولاً، فقط كنتُ أحسُّ بالجوع برغم أني أكلتُ كثيرًا في المطعم الجميل الجديد الذي يقدِّم الوجبات البدويّة والمصريّة القديمة، الذي كان جزؤه الأمامي خِيَمًا وقعداتٍ عربيةً أنيقةً في بيوتٍ مِن الشَّعر تذكِّرني بمجالس الشعراء القُدامى وتجعلني على يقينٍ مِن أني سألتقي أبا نواسٍ إذا أغمضتُ عينيَّ قليلاً، ونظرتُ للنخلة المُتباهِية بجمالها وجمال المكان، وتجاهلتُ سيارتي التي ركنْتُها تحتها مُحاوِلاً أنْ أبقيها باردةً بعض الشيء، أشعر بالجوع برغم ما تناولت مِن الخضروات والشوربة التي أظنُّها ألذَّ شوربةٍ ذقتُها، الطعام كلّه مِن ألذّ الوجبات التي حصلتُ عليها. سيطرتْ عليَّ حالةٌ مِن الاسترخاء وتلذُّذ التُّخمة.

وتمنيْتُ أنْ أصير فِيلاً ينفجر مِن كثرة الطعام أو يموتُ مختنقًا به، فلا يشعر بصعوبةِ خروج الروح التي تقف حائلاً بيني وبين المغامرة، جوعي الأكبر للبحر الذي فتّشتُ عنه كثيرًا أثناء القيادة على طريق مطروح الإسكندرية وحاولتُ أنْ أستشرف صفحته البهيَّة بين خَلَلِ القرى والشاليهات المُتراصَّة بإتقانٍ، رغبتُ في نومٍ طويلٍ أو ينفجر إطار السيارة الذي خيَّبَ توقُّعاتي؛ وتَخرُج الروح ويرتاح الجسد فلا يعرف أحدٌ إلى أين ذهبتُ إلا بعد أيامٍ، حين يفتح خالد الباب أو يشمُّ العمال رائحة جثتي المُتعفِّنة، فيكسرون باب الشاليه، ويُبلِغون أهلي، مُستخدمين هاتفي والأرقام المسجَّلة عليه، ويُبلِغون الشرطة التي ستتكاسل، ولكنها ستأتي على أملِ أنْ يتذكَّر الناس وجودها.

ولكنْ مَن أول مَن سيتَّصلون به مِن أهلي؟ أغلب الأسماء المسجَّلة عندي في الهاتف غير مُحدَّدةِ القرابة إلَّا أبي، فقد سجَّلتُه باسم (الوالد)، وأبي مات مِن شهريْن، هل سيتَّصلون به وهل سيُجيبهم؟ أظنُّ أنه سيجيب وسيفجع بي أكثر مِمّا فُجِع بنفسه قبل ستين يومًا.

إطار السيارة لم ينفجر وخيَّب ظني طوال أكثر مِن ساعتين مِن القيادة التي غلب عليها التهوُّر وتجاوُز السرعة المقرَّرة وأحيانًا الصعود إلى السماء، ظنًا أنَّ أحدَ بوابات العبور إلى الساحل الشماليّ يُشرَع على زُرقة السماء العنيدة التي تحاصرني أو تطاردني، وتذكِّرُني بأني لا أستطيع أنْ أفعل شيئًا إلَّا بإرادتها، حتى لو كان ما أريده هيِّنًا لا يتجاوز أنْ أحرِّك عجلة القيادة بشكلٍ جنونيٍّ إلى أقصى اليمين أو أقصى اليسار، فتنقلبُ السيارة أو تُغرَسُ في الرصيف كوردةٍ حزينةٍ على جفاف الماء مِن تحتها.

لا الموت قادرٌ عليه ولا الحياة كذلك، أنا هنا بينَ بينَ، مُعلَّقٌ بين السماء والأرض، بين القاهرة والإسكندرية وبين الصعيد الذي فيه كبرتُ، وتعلَّمتُ، وحلمتُ أنْ أكون أميرًا عليه، أحارب الأعداء في الحرب الأهلية، وأنتصرُ عليهم وكلِّي يقينٌ أنهم يجاهدون لأجلِ الحقِّ لأنَّهم على الأقل مِصريون وليسوا غزاةً أو وحوشًا خرجتْ مِن تحت الأرض كما يحدث في أفلام الرعب، بين النجاح والفشل مُعلَّقٌ.

نجحتُ في العمل وفي مسيرتي التعليميّة، ولكني فاشلٌ في أنْ أجد

الغاية مِن النجاح، فاشلٌ في أنْ أكون فردًا عاديًا في الأسرة يستمتع دون هروبٍ ويمتِّعُهم بحضوره أكثر مِن أنْ يعذِّبهم بالغياب والشُّرود، معلَّقٌ أنا بين ذاتي التي لا أجدُ لها ملامحَ تدلُّ على الحضور الحقيقيّ في دُنيا الناس البسيطة وبين علاماتٍ كثيرةٍ على حضورٍ حقيقيٍّ في هذا الواقع المادّي الذي أبدو فيه غريبًا. في الغالب، أنا نصفُ شبحٍ ونصفُ إنسانٍ، ومِن هنا ينتُج كلُّ العناء، وكثيرٌ مِن المتعة.

خرجتُ إلى البحر دون شمسيةٍ أو كرسيٍّ أو شبشبٍ أو حتى مايوه، فقط شورت قصيرٌ، والقميص ذاته الذي كنتُ أرتديه دون ملابسَ داخليةٍ، لم تكن الطُّرُق الإسفلتية ملتهبةً كالجمر كما ظننتُ، فلم تكوي قدميَّ بنارها ولم أقابل أحدًا في الطريق فأكون خَجِلاً مِن مظهري غير الطبيعيّ الذي لا يوضِّح أيَّ شيءٍ يدلُّ على فرحٍ أو حزنٍ أو هروبٍ أو أنّي مطاردٌ أو جائعٌ أو باحثٌ عن لذَّةٍ، فقط كلُّ ما يَظهَر مِن هيئتي أني شاردٌ، وهذه لن يفهمها أحدٌ غيري.

وعمومًا أنا لم أقابل أحدًا ليفكِّر في الأمر، لا طويلاً ولا قصيرًا، لا صابرًا

أو متسرِّعًا، فقط وجدتُ الهواء يفحُّ مِن حولي كأفعى تترصَّدني، وتنتظر الوقت المناسب، رجلاي تجاهدان في الرمل الناعم وجسدي يبدو مستسلمًا وذهني يبحث عن الشيء الذي ينتظره مِن سنينَ ولا يعرف أيَّ شيءٍ عنه، هو فقط مصدرٌ للراحة أو للسعادة الأكيدة أو قد يكون مُجرَّد العثور عليه مريحًا لأنه إيذانٌ بأنَّ البحث انتهى، وآنَ للباحث أنْ يرتاح ويطمئن بعده.

لكنْ ما هو؟ الله أعلم! يبدو أني وجدتُ لذةً في مشقَّة السير في الرمل الناعم فأكملتُ السير مُوازيًا للبحر على الشريط الذي هو بين الرمل الجافِّ وبين آخِرِ محطات الموج، أتابع ما لفظ البحر مِن أشيائه التي استغنى عنها، وفضلاته التي يخاتل بها الصيادين والباحثين عن شيءٍ ثمينٍ مفقودٍ، وتعارَكَ الموج مع بعضه وظلَّ الشَّرود الأبيض يقفز فوق الأمواج في الهواء وينظر لي مُثبتًا عينيه في عينيّ.

مشيتُ كثيرًا، تجاوزتُ القرية السياحية التي فيها الشاليه وقريتيْن أُخرَيِيْن، لا أدري كم كيلومترٍ قطعتُ بالتحديد، وفكَّرتُ في قياسها

بالخطوة وأنا عائدٌ، ولكنْ، أليس مِن غير العدل أنْ أقيس هذه المسافة فقط، دون أنْ أقيس كلَّ المسافات التي قطعتها ورائي؟ لِمَ لا أقيس المسافات بين القاهرة والساحل الشماليّ؟ وأقيس كذلك المسافات بين المُحارِب في شمال الصعيد والقاهرة؟ وبين المُحارِب كذلك والجنوب؟ الجنوب حيث يجلس عبد الحميد على دكَّته في مدخل البيت الكبير، وحيث خليل وسويلم يزرعان الأرض، الأرض التي يحكي لي أبي عنها دائمًا والثقة والاعتزاز بالأصل يصبِغون حديثه مِن أول كلمةٍ حتى يهدأ تمامًا، وينام مُغطِّيًا وجهه ناصبًا ركبتيه.

لِمَ لا أقيس المسافة بين مرقد أبي القديم حيث حكايات الشتاء الدافئة وبين قبره المختبئ خلف المسجد إذا ما خرجتُ مِن الصلاة وحاولتُ البحث عنه لأصافحه وأقول بصوتٍ تملؤه الحماسة: «حرمًا.» لا أجده، ولا يردُّ بابتسامته التي لا تفارقه أبدًا وهو خارجٌ مِن المسجد ويقول: «جمعًا إنْ شاء الله.» ابتسامةٌ عجيبةٌ لا تعني الفرح ولا تعني الرضا، ولا تعني شيئًا غير أنَّ الوجه في حالةِ إضاءةٍ وخشوعٍ مؤقَّتٍ، ريثما تهجُمُ على العقل فكرةٌ جديدةٌ أو مشكلةٌ فتقتلع هذه الابتسامة مِن جذورها،

وتغيب تمامًا حتى تنبت في الصلاة التالية.

مشيتُ باتّجاه شمسيةٍ بحالةٍ أفضلَ بين ثلاث شمسياتٍ أخرى متهالكةٍ بفِعْل الشمس والإهمال، ولم يكنْ الشَّرود الأبيض تحتها كما تمنَّيتُ، تبدو الشمسيّات الثلاث كزوجاتٍ مُهمَلةٍ سافر أزواجهنَّ إلى المجهول، وقد يعودون في الصيف ليحتموا ببرودة البحر، وقد يبتلعهم الغياب، هل لو حضرتُ في وقت المَصيف الطبيعيّ والشاطئ ممتلئ بالضاحكين والراكضين واللاعبين والمشاكسين كنتُ سأحسُّ بهذه الشمسيات التي تستغيث مِن الوحدة والفقر والعطش وحرارة الشمس وملوحة البحر أم أني كنتُ سأراها تلعب وتتراقص في زحمة الناس وتدّعي أنها أكثر وفاءً مِن عبدٍ مُخلصٍ؟ لأنَّها وحدها قادرةٌ على حماية الأجساد مِن الشمس إذا ملَّت الماء أو تعبت مِن المطاردة.

حتى الآن لم أرَ وجهًا بين هذا السكون غير خالد الذي أعطاني مفتاح الشاليه وأخذ ثلاثمائة جنيهٍ ومضى دون أنْ يتطرَّق إلى حكايات العُربان والحراسة التي كان يستمتع بإخباري بها وهو يضحك ضحكةً طفوليةً،

ظانًا أني سأقصُّها على الطلبة كاملةً، ولابُدّ أني سأُشيد بدور عائلته وأهله في حلِّ المشاكل، وتسوية الخلافات بين أفراد القبيلة أو القبائل الأخرى، وأُخبرهم بمكانة عائلته التي لا أعرفُ أحدًا مِنها إلا بالخيال وبأسمائهم التي تأتيني عبر حكاياته، وأنَّهم مقدَّمون في أيِّ (ميعادٍ) أو قعدةِ عربٍ أو محكمةٍ عُرفيّةٍ كما أحبُّ أنْ أسمِّيَها دائمًا، وأؤكِّد له أنها بديلٌ عن الدولة التي تذوب ملامحها في الظلام.

جلستُ تحت الشمسية أتلفَّتُ حولي بشكلٍ دائريٍّ يتقاطع مع البحر الهائج ويستقرُّ على بقية المشهد الذي يبدو مشهدًا صامتًا أو تاريخيًا قديمًا لا يَحيا إلا في الذاكرة الرومانسية فقط، أو كأنه فيديو ضَغَطَ للتوِّ المُشاهِدُ الذي لا أعلمه على زرِّ (pause) فتجمَّد كلُّ شيءٍ وخرج عن سيطرة الزمن، وبقيتُ وحدي أجاهد الفناء حتى انتصرتُ عليه، ثم تعذَّبتُ بهذا الخلود الذي أبقاني وحيدًا يقتات الحزن ويأكل الورد ويعبِّئ مِن النسيم صدره الخِلْو.

لا أحدَ على الإطلاق يمكنني مهما أرهفتُ السمع أنْ أحسَّ لِنَفَسِه حِسًا،

البحر فقط يبدو كأفعى هائجةٍ تُخرِج لسانها برتابةٍ لتنفُث الوعيد وتقطر السُّم، رغبتُ في الارتماء في حضن الأفعى لأنَّها الشيء الوحيد الذي مازال حيًا مِن حولي في المشهد كلِّه، كأني أردتُ اختبار حقيقة أني حيٌّ، بعدما سيطر عليَّ الشكّ في كلِّ شيءٍ، فليس مِن المعقول أنْ أكون وحدي أنبض بالحياة وسط هذا الموات المنتشر في كلِّ ركنٍ، فخلعتُ القميص ووضعتُ بجيبه مفتاح السيارة ومفتاح الشاليه، ولففتُ القميص بإحكامٍ حول الجيب، ودسستُه في أعلى الشمسية بين خلل حديدِها الصدئ الذي يبدو جرحًا لا يندمل، ثم اتّجهتُ إلى البحر بخطًى وَجِلَةٍ كأني سألتقي فيه أبي بعدما ضرب هو لي موعدًا لا أُخلِفُه.

غمرتُ جسدي بالماء دون أنْ أتوغَّل في البحر، أو أحاول معاندته وأنا دون رفيقٍ يمكنُه إنقاذي إنْ حاول الموج أنْ يغدر بي، شعرتُ بأنّه يرغب في ابتلاعي دون أنْ يُحاسِبه أحدٌ؛ فالفرصة حاضرةٌ لأنَّ الجريمة لن يكون عليها شاهدٌ واحدٌ، استشعرتُ أنه يريد أنْ يستغلَّ الفرصة؛ فاقتربتُ مِن الشاطئ مُكتفِيًا بقدمين مغمورتين في المالح، ثم اكتفيتُ بملح الرمل المُبلَّل وأكملتُ سيري موازيًا البحر في هذا الخطِّ الأخير

للموج، وكنت أرمق البحر بنظرةِ خوفٍ مِن حينٍ لآخر، معتقدًا أنه مازال يترصَّدني وأنه لا محالةَ لن يَدَعَ الفرصة تَضيع دون أنْ يصطادني.

بدا البحر لي مُتحرِّشًا ببريءٍ تطارده الدنيا كلّها فسيطرتْ عليّ فكرةُ أنَّ هناك اتصالاً بين عناصر الطبيعة، فالعناصر الأخرى قبل أنْ تموت تركت رسالتها للبحر، بعدما كانت على يقينٍ مِن أنه سيبقى حيًا بعدها، تُفيد الرسالة بضرورة قتلي حتى أتخلَّص مِن الوحدة ولأجد مَن أحدِّثه أو لأَلقَى أبي ويبتسم لي كلَّ صباحٍ أو بعد الصلاة. يبدو أنَّها شفقةٌ عظيمةٌ وراء هذه الرغبة في قتلي التي كنتُ ألمحُها في عينيْ البحر الهائجتين.

سيطرتْ عليَّ الغربة والخوف مِن البحر الذي يترصَّدني في حياته، ومطاردة عناصر الطبيعة الأخرى بعد موتها، فقررتُ أنْ أعود إلى الشاليه جريًا بأسرع ما أوتيتُ مِن القوة، لم أستطع الجري، ربما لأنَّ الرمل ناعمٌ جدًا وقدماي تغوصان فيه بسهولةٍ، وربما لأني كنتُ أنوي الاستسلام.

مضيتُ ببطءٍ وتثاقُلٍ إلى حيث الشمس البرتقالية التي أعلنتْ فجأةً عن وجودها وعن حياتها مع البحر وكأنّها تعلن عن تزاوجها به، وبَدَتْ أقلَّ

عدوانيةٍ، أو بالأحرى بَدَتْ كأنها تُصحِّحُ أخطاء زوجها، وأخذتْ تُلاطِفُني وتبثُّ الكلمات الرومانسية وأحيانًا الكلمات المثيرة أو المحرِّضة على ليلة تزاوجٍ سعيدةٍ تبدأ الحياة بعدها بالنبت والاخضرار، وتتحوَّل من الصمت إلى الكلام والبوْح المستمرّ الذي يعلن عن بدايةٍ جديدةٍ للأرض.

جلستُ على الرمل بغير حاجةٍ إلى ظلِّ الشمسية المهترئ لأنَّ الشمس انقلبت فجأةً أُمًّا حنونًا تخاف عليَّ من غدر كلِّ ما حولي، تمنيتُ أنْ تكون هي أمي بالفعل بدلاً من أَسْمَى التي لم أرَ منها إلا الندِّيةَ لأبي والتحريض على أنْ أكون أنا أيضًا نِدًّا له، لا أقبل به ولا بحكاياته ولا بطعامه الذي يأتي به من السوق ظنًا أنه من أردأ ما في السوق؛ السمك كذلك لم تكن أَسْمَى تعده إلا بعد أنْ تعرف أصله وفصله وتاريخه ومنشأه وتربيته، لا أدري إنْ كانت تظنُّ أنَّ السمك مثل بطِّها وفراخها التي يزدحم بها سطح البيت أم أنَّ هذه مجرَّد عادةٍ لابُدّ أنْ تمارسها لتشكِّك في قيمة ما يجلب أبي من طعامٍ، مشكِّكةً في قدرته على إعالتنا، أو بالأحرى تؤكِّد عجزه، هل كانت أَسْمَى قد جرَّبتْ سمكًا آخر وقت تمرُّدها على سمك أبي منذ أكثر من عشرين عامًا.

هل كانت على درايةٍ بأسماك البحر وطعامه وشوربة السي فود وغيرها الكثير مِن خيرات البحر التي أظنُّ أنَّه لم يذقْها الكثير مِن أبناء المُحارِب إلى الآن؟ بالتأكيد هي لم تكن جرَّبت شيئًا منها، قليلٌ مِن أبناء المحارب هم مَن استطاعوا دخول هذه المطاعم التي تقدِّم هذه الوجبات الباهظة، وأنا الآن منهم، آكل الطعام الباهظ وأمشي بين الناس في طرقات المحارب كما لو كنتُ جائعًا يتلهَّف على طبقِ بصارةٍ أو قطعة جُبن قرْيش، كنتُ حين أمضي في الشوارع الضيقة مع حسن أو كميل أبدو ذلك الفتى الذي يريد أنْ يتحايل للهرب مِن الكُتَّاب ليأكل شيئًا من البتاو الجافّ مع الجبن والبلح المحمص أو الكشك.

هكذا كنتُ أراني، ولكنَّهم بالتأكيد كانوا يرون شيئًا آخر، مِنهم مَن يحاول أنْ يُجيب عن سؤالِ كيفية تعييني في وظيفتي المرموقة، ومِنهم بالتأكيد مَن يفكِّر في الراتب الذي أحصل عليه في نهاية كلِّ شهرٍ، كم يكون؟ وكيف أوجِّهُه؟ وهل لأبي نصيبٌ فيه أم أني ابنٌ نذلٌ ككثيرٍ مِن أبنائهم الذين لا يعبأون كثيرًا بعنائهم ويكتفون بالزيارات المتقطِّعة والصدقات الخفيفة؟

قليلٌ جدًا مِنهم يعرف أني أصبحتُ مِن رواد الساحل الشماليّ والغردقة، هذا أمرٌ جعلته سرًّا لا يطَّلع عليه إلا القليلون مِمّن لن يفكروا في دَخْلي أو مصروفاتي أو دوري المادّي في العائلة، حين يتحدَّث أحدهم عن شيءٍ قريبٍ مِن هذا الترفيه كرحلات شمّ النسيم التي يتَّجهون فيها إلى الفيوم أو يقومون برحلاتٍ نيليةٍ كنتُ أسمع فقط، وأتحفَّظ في القول حتى لا أجدني فجأةً محاطًا بنظرات الاتهام بالغرور والتعالي والتكبُّر، كنت أخشى الاتهام بالهروب إلى مستوًى آخر أو طبقةٍ أخرى.

وأظنني لازلتُ كذلك؛ أتألم كثيرًا إذا طالبني نبيل، الشابّ الذي تمنّى أنْ يصير وكيل نيابةٍ، بأنْ أكون أكثر وجاهةً وألَّا أقترب مِن أناسٍ بعينهم لأنه لا يليق بي مجالسة أيٍّ مِن الناس الذين يجلسون على الكوبري أو على طريق الترعة البحريّ، نبيل الآن ليس أكثر مِن خطيبٍ بليدٍ يجاهد ليُقنِع نفسه بأنَّ وظيفته سلطةٌ كبيرةٌ ومهمةٌ، بل وخطيرةٌ وتؤثِّر في الناس، هو الأقلّ تأثيرًا في الناس، وأقلّ مَن يُقبِل المصلّون عليه بين خطباء المساجد الأربع للمحارب، هو لم يقنع نفسه بأنّه خطيبٌ جيدٌ حتى يقتنع المصلون، تحوَّل بشكلٍ واضحٍ إلى بوقٍ يمجِّد نظام الإخوان

بعدما كان مشهورًا بتبعيته للحزب الوطنيّ، ولا يشعر بأدنى حرجٍ لهذا التحوُّل اللافت.

صحيحٌ هو لم يكنْ خطيبًا في الماضي وهو في مقدِّمة شباب الحزب الوطنيّ النشطين الطامعين، لكنْ الآن يحسُّ أنه أكثر عطاءً للحاكم وأقرب مِن أيِّ وقتٍ سبق إلى أيِّ فرصةٍ تُحسِّن وضعه وتمكِّنه مِن قدْرٍ أكبر مِن التعالي على الناس. كم أكره الآن التواضع! وأكره سكنه الإجباري في عقلي وقلبي! كم كنتُ أرجو أنْ أكون بليدًا متعاليًا!

حدَّثني كميل كثيرًا بمثاليةٍ عن التواضُع وعن حُبِّ أغلب الناس في المحارب لي واعتزازهم بي، الذي صوَّره على أنه فيضٌ مستمرٌّ. الحقيقة أني لم ألمس كثيرًا مِن هذا الحبّ أو ذاك الاعتزاز، فقط استشعرتُ لدى بعضهم الغيظ وأحيانًا الحقد والكره، وقليلاً مِن الحبِّ الصادق، وسمعتُ كثيرًا مِن جُمَل الإطراء الصريحة التي لم أصدقْ شيئًا منها، وكنت أسمعها باعتيادٍ وأردُّ كذلك برتابةٍ وحيادٍ، بوصفها جزءًا مِن بروتوكولات المقابلات والترحيب الريفيّ المُتَّشحِ بالاحترام والتقدير للجميع.

الناس في المحارب يَبدُون مُحبِّين لبعضٍ إلى حدٍّ كبيرٍ، يقدِّسون العادات ويحترمون المواسم والطقوس والمناسبات بشكلٍ مُبالَغٍ فيه، ويبدون لهذا كالأسرة الواحدة التي تلتزم بكلمة الأب والأعمام والأخ الأكبر أشدَّ الالتزام، ووراء هذا الحبِّ والانضباط الشكليّ والموسميّ كانت أطنانُ الحقد تزيد إلى حدِّ التعفُّن والتراكم الذي ينجب المزيد مِن الكره والقيل والقال الذي يزدحم به لَيْلُهُم تحت بطاطين الشتاء.

كميل متحمسٌ دائمًا ويحاول أنْ يُرِيَني المثالية في كلِّ شيءٍ مِن حولي، أظنُّ أنَّه يكذب على نفسه وهو يعتقد أنه بإزاء واجبٍ وطنيٍّ ليُقنِعني بأنَّ المثالية فقط هي الجديرة بأنْ تنعكس على تفكيري وأعمالي، كان يُجاهِد ليُرِيَني العالم بعينيه المتفائلتين، هو لم يكنْ مثاليًا بالقدر الكافي الذي يحاول أنْ يصوِّر لي به الكون مِن حولي، ولكنَّ حماسه وتفاؤله أكبر مِن أيِّ قدرةٍ على الإحباط أو اليأس، هو ليس متدينًا بقدرٍ واضحٍ، ولم يتحدَّث معي عن تفاصيل زياراته القليلة إلى الكنيسة كما لم أحدِّثه أبدًا عن أيٍّ مِن تفاصيل زياراتي الكثيرة إلى المسجد.

أحيانًا كثيرةً ينتظِرُني بجوار المسجد الشرقيّ بعد صلاة العصر لكي نمضي إلى الحقول البعيدة حيث الجوخدار النائمة بعيدًا عن القرية مستمتعةً بروائح الخضروات أو طَلْع النخل أو البلح، وأحيانًا نسير قليلاً إلى أرضهم القريبة المُتحصِّنة بالبيوت والظلِّ والحكايات التي يمتلئ بها الطريق.

تمنيتُ كثيرًا أنْ يُرافقني كميل في رحلةٍ إلى الساحل الشماليّ أو إلى دمياط التي يتحدَّث عنها كثيرًا بعدما هجَّ إليها أحد أقاربه، لو كان كميل معي لَما استشعرتُ هذا السكون القاتل وما كنتُ لأفكِّر كثيرًا أو أُعْمِل عقلي إلى هذا الحدِّ المُجهِد المُذلّ؛ إعمالُ العقل دليل الحياة، ولكنه إذا صار المصدر الوحيد لنزف الدماء مِن عصير القلب، وتقطير العذاب، وصبّه على الجسد، فإنه يصبح مُذلاً، ولهذا كان وجود كميل ضروريًا حتى أرى ضحك الورود التي تملأ المكان وتحاصر كلَّ الشاليهات، وتعلن عن نفسها بشكلٍ استعراضيٍّ لا أحسّه إلا كتماثيلَ صامتةٍ، كميل قادرٌ على إضحاكي في أغلب الأوقات، ولحوحٌ جدًا إذا وجدني شاردًا أو مهمومًا، ولا يستطيع الصمت إذا لاحظ أني لا أتجاوب معه في ضحكه،

أو بالأحرى هو لا يستطيع أنْ يراني إلا مبتسمًا.

أظنُّ أنه يشعر بالغربة معي إذا كنتُ كئيبًا أو حزينًا بعض الشيء، هو لَمْ يخرج كثيرًا مِن المحارب، فقط عام الخدمة في الجيش حيث كان في الإسماعيلية في الجيش الثالث، وسنوات الكلية الأربع التي قلَّما غادر فيها المدينة الجامعية وخرج للنزهة أو ملاقاة أحد أبناء المُحارب العاملين في القاهرة، يستطيع بسهولةٍ أنْ يُحصي لك عدد مرات تَرْكِه للمدينة الجامعية ويتذكَّر سبب كلِّ مرةٍ خرج فيها وملابسات الخروج، هو يعتني بالتفاصيل بشكلٍ لافتٍ ويحفظها بشكلٍّ مريبٍ.

لو جاء معي لاستمتع بالتفاصيل واستطاع أنْ يفتح عينيَّ على جمال التفاصيل التي تُحيطني في هذه القرية بعدما يتلفَّتُ في كلِّ ركنٍ فيها، ويقول سِحْر! هذا سِحْرٌ، جَمالٌ ما بعده جَمالٌ! هكذا يقول حين تروقه بعض الكتابات أو الأشعار أو الأماكن الجميلة القريبة من القرية.

شعبان كذلك مناسبٌ لهذا الجوِّ مِن الهدوء والصمت والورود الحمراء والصفراء التي تحرِّض على الخوض في حكايات بنات المحارب ونسائها،

كميل ليس كشعبان لا يخوض في هذه الحكايات أبدًا، يستمع فقط، وأحيانًا أظنُّ أنّه يتعفَّف عن الاستماع، ويحاول أنْ يُخرِجنا جاهدًا إلى مسارٍ آخر، ولكنَّ حكايات شعبان لها وَقْعُ السِّحر، تَشخص الأبصار، وترهف الأسماع، وتكثر الأسئلة، وهو لا تنضب إجاباته التي ينفجر عن كلِّ إجابةٍ منها قصةٌ جديدةٌ، أشعر بالغباء لأني لم أظفر في هذا المكان بصحبة كميل أو شعبان أو كليهما معًا، الحلو لا يكتمل معي دائمًا، يبقى النقص للعبرة والاتعاظ، وأنا قلَّما أتّعظ، فقط أتحسّر على اللذة المفقودة واللَّبِنة الناقصة التي تؤكِّد الغربة وقلّة الحظ.

العجيب أني أرى في النجاح سببًا لكلِّ هذه الغربة وهذا النقص، فلولاه ربما كنتُ ملازمًا لشعبان طول الوقت أو نعمل معًا في الأرض، نزرع قراريطنا القليلة ونرعى بهائمنا ونتخطّى المجاري لكي نلتقي تحت عنبتهم أو تحت نخلنا، ثم نعبِّئ من الحكايات قلوبنا حتى تنفجر ضحكًا وفرحًا، أو ربما كنتُ ملازمًا لكميل نتجول في شوارع المركز ونتسكَّع على كوبري مدرسة التجارة وأشجعه على ترصُّد العيون والأرداف، كميل ليس كشعبان لا يمكن أنْ يتابع البنات ويتسكَّع على المقاهي أو في

الطرقات، ولكني أظنُّ أني قادرٌ على أنْ أسحبه حيثما أريد، فهو لا يردُّ لي طلبًا حتى لو لم يوافق رغبته.

ليس في الشاليه أيّة أطعمةٍ، والليل يُطلِق جرس إنذارٍ بالتزوُّد بكلِّ ما يحتاجه الإنسان الحيّ حتى لا يُضطّر إلى الخروج زاحفًا في الظلام، لن أخرج في الليل وأنا مُحمَّلٌ بحكايات القتل التي كان يقصُّها عليَّ خالد دائمًا، ويزدحم بها المكان الذي يبدو فيه العربان كثعالبَ جائعةٍ تنهش في لحم بعضها بعيونٍ جامدةٍ تلمع كسكينٍ متعطشٍ للدم؛ العربان هنا يقومون بحراسةٍ إجباريةٍ لكلِّ القرى والشاليهات والفِلَل، لا أحدَ يطلب خدمتهم، هم يفرضونها على الناس، وإلا يكون مصير مَن يرفض حراستهم أنْ يُسرَق كلَّ يومٍ على الأقل، وقد يُحرَق المكان تمامًا، هم طيِّبون بحسب وصف خالد وعنيدون كذلك، يريدون شيئًا مِمّا ينهبه موظفو الحكومة الكبار حتى يتركوهم يستمتعون بسلامٍ بالهواء والبحر والمباني الجميلة التي قلَّصت مساحات الرعي وحدَّدت حركتهم، بعدما كانوا يملكون الأرض كلّها ويسيحون فيها دون قيودٍ كما الرياح، ويتلقَّفون في ليالي السمر النجوم التي تهوي بين ساعةٍ وأخرى.

obeikan.com

خرجتُ إلى مجموعةِ المحلّات التي تقف على الجانب الآخر مِن الطريق في مواجهة البحر، وتبدو كأنها تشير للسيارات المارَّة إلى الغرب وتطالبها بالوقوف، وتهدِّد بوحشة الليل وكآبة الطريق ونقص المؤن والطعام إنْ تجاهلوها ومضوا في طريقهم، المحلات هي نفسها التي أشتري منها كلَّ مرةٍ وعرَّفني خالد عليها، وقال إنهم مِن قبيلته وأسعارهم أفضل مِن الآخرين، بعد الحيرة المعتادة في أيِّ الأطعمة أفضل، وبعدما زاغت عيناي في كلِّ المكان مُمسكًا بشيءٍ ثم أتركه مرةً أخرى، قررتُ ألا أكون مترددًا حتى لا تبدو صورتي أمام البائع أكثر سوءًا وريبةً مِمّا هي عليه، عبَّأتُ بعض العصائر والخبز والمُعجَّنات وطبق حلوياتٍ مُشكَّلةٍ مِن الكنافة والبسبوسة والجلاش، وعلبة جبنة مربعات، وشيبسي مِن الحجم العائلي، وعدتُ وكأني سأُطعِم الصمت بهذا الطعام أو أحاول بعث الحياة فيما مات مِن الإهمال والجوع مِن أشياء المكان.

حين دخلتُ حاملاً الطعام شعرتُ كأني أدخل القبر وبيدي زادي الذي حصَّلته مِن الدنيا، سيطر عليَّ أني لن أخرج مِن هذا المكان، لا حيًا ولا ميتًا، الشاليه جميلٌ، فيه حجرتان للنوم في كلِّ واحدةٍ سريران

مفروشان بفُرُشٍ نظيفةٍ ومُرتَّبان جيدًا، ودولابٌ به بطاطينُ إضافيةٌ ولا شيء آخر، والصالة منقسمةٌ جزئين؛ جزءٌ أقرب إلى الباب الخارجي وفيه سفرةٌ تشكي التكدُّس وضيق المكان عليها وعلى كراسيها، والجزء الثاني مِن الداخل فيه أنتريه ومكتبةٌ تتشبَّث بالتلفزيون وتفاخِر به وتُطالِب بسرعة تشغيله حتى تدبَّ الحياة في المكان وتبعث أشياءه مِن موتها، وفيه كذلك حمَّامان متجاوران، أحدهما للداخل أوسع قليلاً وفيه بانيو وآخر أقلُّ اتساعًا وأكثر تهالكًا، أمّا المطبخ فكان كبيرًا ومُجهِّزًا بكلِّ شيءٍ إلا الطعام.

نزعتُ عني كلَّ ثيابي بعدما تأكدتُ مِن أنَّ الأبواب والشبابيك كلُّها مغلقةٌ، وتمنيتُ أنْ أجد كفنًا أتدثَّر به بعد الاغتسال وقبل النوم الذي كنتُ أرجوه طويلاً بلا نهايةٍ، دلفتُ إلى البانيو مُستطيبًا الماء البارد وغسلتُ كلَّ أفكارِ الفناء التي تلبّستني، كما لو أنها نزلتْ جميعًا مع الماء إلى الصرف الصحيّ ومضتْ مع بقايا الرمل الناعم الذتي حملتْها الأرجل مِن الشاطئ إلى البانيو، تذكَّرتُ حين الغسل أني ما زلتُ أتنفس، وتأكدتُ مِن أني حيٌّ، وأني أمضي في الطريق الذي تخيلتُه في الطفولة،

وأني الآن صرتُ دكتورًا حاصلاً بشكلٍ رسميٍّ على درجة دكتور في سنٍّ صغيرةٍ، ولن يمنَّ أحدٌ عليَّ بها إذا ما قالها، لن يكون مُجامِلاً ولن أكون مجبرًا على استطابة كلامه المغلوط أو استعذاب كذبه وتمريره لمجرد أنه يجاملني ويقول لي يا دكتور وأنا ما زلتُ في مرحلة الإعداد للدكتوراة.

تذكرتُ أنَّ اسمي حميد سليمان، وتذكَّرتُ قدر حبي لهذا الاسم، وأنه مِن الأسماء القليلة المكرَّرة في المحارب بخلاف أسماءٍ أخرى مثل محمد أو مصطفى أو شعبان أو حتى حسن، أخي الذي يبدو اسمه مألوفًا بين أسمائنا نحن بقية أبناء سليمان الشافعي، حسن فقط هو الذي يبدو اسمه عاديًا ومألوفًا بخلاف حميد أنا وحَمَد ومحيمد، لا أدري لماذا كان أبي يتعمَّد تشابُه الأسماء فيما بيننا وغرابتها واختلافها عن أسماء الناس مِن حولنا.

آهٍ مِن الماء البارد الذي يُعيدني فأرًا بين فئران الدنيا يستلذُّ البرد ويخاف الجوع وقلة القُوت وينهار بكاءً إذا خاف أو اضطرب!

حميد سليمان الآن دكتورٌ مع مرتبة الشرف الأولى وهو لم يبلغ الثامنة

والعشرين، يهرب إلى الساحل الشماليّ وينظر للبحر نظرةً كنظرة الأدباء والمفكرين والسياسيين ولصوص الدولة الرسميين الذين كان يراهم في المسلسلات، نظرةٌ كنظرة يوسف السباعي في مسلسل فارس الرومانسية، أو حتى نظرة المحترمين مِن الرجال مثل سليم البدري في ليالي الحلمية، كم عشقتُ هذه الشخصية وأنا صغيرٌ! وأحببتُ سيطرتها وقوَّتها وألاعيبه التي لا تنقطع مع سليمان غانم، هل سليمان غانم يشبه أبي وأشبه أنا سليم البدري؟ هل يأتي يوم وأدخن السيجار أم أنَّ التدخين سيقرِّبني سريعًا مِن مصير أبي ويجعل عضلة القلب لديَّ تتضخَّم؟

هل السيجار ضروريٌّ حتى يكتمل رضائي المكذوب عن نفسي؟ لبستُ الشورت الوحيد معي وخرجتُ والماء يقفز عن جسدي في كلِّ مكانٍ، واستلقيتُ على أحد السريرين حتى شعرت ببلله ثم انتقلتُ إلى الآخر؛ فجفَّ جسمي كاملاً وشعرتُ ببرودة رأسي الذي بقي دون فرصةٍ للتجفيف، وبدأتُ في عطسٍ يشبه عطسَ أبي الذي كان لابُدَّ أنْ يتجاوز الخمس مراتٍ على الأقل، أنا لم أعدَّها ولا مرةٍ، ولكنْ كلُّ مَن يعرف أبي يتذكَّر أنه حينما كان يعطس كان عطسه يتكرر كثيرًا بشكلٍ واضحٍ.

openkan.com

جفّفتُ رأسي في إحدى فُرُش السرير وخرجتُ إلى الطعام ظانًا أني أستطيع أنْ آكله كُلَّه، ولا أبقي شيئًا آكله إنْ فاجأني جوع السهر، لم أشرب إلا بعض العصير وتمدّدتُ أنظر للتلفزيون المُقفل وكأني أتابع فيلمًا شيقًا، تكاسلتُ عن تشغيل التلفزيون واستحلبْتُ النوم مِن جفنيَّ المُجهديْن العنيدين.

في النوم أعيش أحلامًا كأنَّها فصولٌ مُتعددةٌ أو حلقاتٌ مُسلسلَةٌ مِن عملٍ واحدٍ لا ينتهي، مرةً أكون في منطقةٍ جبليةٍ بمفردي أُصارع الرمال والمرتفعات وأتلفَّتُ حولي مُفتِّشًا عن الخوف الذي يحوطُني سواءً مِن وحشٍ أراه لأول مرةٍ، أو مِن وحوشٍ تقليديةٍ كالتي رأيتُها في الفترة التي كنتُ فيها مولعًا بأفلام الرعب الأمريكية، أو مصاصي دماءٍ أو حربٍ عالميةٍ جديدةٍ لا يعرف الجنود فيها إلا شهوة متابعة جريان الدم على الأرض أو على لحاء الأشجار التي يحاول الضحايا أنْ يتحصَّنوا بها، أو عصابةٍ خطيرةٍ لا تعرف إلا المصلحة وتسفك الدماء بغير شُحٍّ، حتى لو كانت تسفك دمَ عنصرٍ مِن عناصرها ثَبَتَ فشله أو تسبَّب في خسارةٍ لا يمكن أنْ تغتفر.

وأحيانًا أكون وحيدًا أتخطّى البيوت المظلمة والحواري الضيقة مُطارَدًا مِن مجهولين لا أعرف عنهم شيئًا أو حتى مجرد نوعهم، إنْ كانوا بشرًا أم مِن جنسٍ آخر، فقط أكون على يقينٍ أنَّ هناك مَن يطاردني ويملك أَرجُلاً تستطيع التهام المسافات، أحلامٌ غريبةٌ لا تسير بتسلسلٍ منطقيٍّ أو تدرُّجٍ أو تبدو قصةً يمكن حَكيُها بعد الاستيقاظ، ليستْ غرابتُها في أنها حزينةٌ ويسيطر عليها الشرُّ فقط، بل لأنها ذات بُنيَةٍ مُخلخلةٍ، أحيانًا، ولأنها كذلك لا أستطيع تذكُّر أيَّ شيءٍ منها، فلا يتبقّى إلا بعض ملامح الشرّ الغائمة والحزن الذي يتزايد بحنانٍ وينبت في مساحاتٍ كبيرةٍ مِن الزمان والمكان حولي دون ضجيجٍ.

كثيرًا ما كنتُ أسعد بأنْ أسعَفَني جسمي وعقلي بالاستيقاظ مِن النوم لأنه يشبه صورةً غبيةً لِمَا بعد الموت، صورةً لا هي في الجنة ولا في النار، فقط قبرٌ مستمرٌّ وشخصٌ ضعيفٌ كئيبٌ مُعلَّقٌ بين البعث مِن جديدٍ أو أنْ يُصرَف إلى لا شيء، لا أذكر أني حكيتُ حلمًا لكميل أو شعبان، أو حتى أبي حين كنا نتحدَّث كصديقين حميميْن، وأبدو أنا أحيانًا كصديقه الأكبر سنًا، فيستمع لي بحماسٍ وكأنه يريد أنْ يعرف أو

يتعلَّم، قديمًا كان هو مَن يسيطر عليَّ بحكاياته وقصصه وأمثاله التي يتناقلها عن جدتي وعن كبار السنّ في المحارب الذين يحبهم ويجلس معهم كثيرًا، ثم بعد أنْ زاد تكرارها عن الحدِّ المعقول بدأت أنا أهرب بذكاءٍ بأنْ أمسك بزمام الحديث وأحدّثه وهو يستمع بشغفٍ ويسأل بمودّة تلميذٍ يحبُّ أستاذه.

علاقةٌ غريبةٌ بيني وبين أبي، يشكِّلها الزمن بخصوصيةٍ تجعل تكرارها نادرًا، لا أظنُّ أنَّ أبًا تحوَّلتْ علاقته بابنه بمثل التحوُّلات التي شكَّلتْ علاقتي به؛ يبجِّلُني أمام الناس كما لو كنتُ أخاه الأكبر، ويسألني ويستفسر أمامهم، ثم يُعارِض ويشكِّك ويضيف جديدًا أو يؤيِّد ويعلو صوته وينفعل ويصير حديثه كلّه خارجًا مِن عضلة القلب التي تضخَّمت ونصحه الطبيب أكثر مِن مرةٍ في حضوري أو حضور حسن الذي كان أكثر ملازمةً له مِنَي بعدم الانفعال أو الغضب.

في مرةٍ مِن مراتِ مشاجراته الكثيرة مع أَسْمَى قلتُ له مهدئًا بعد فاصلٍ طويلٍ مِن النصائح عن أسرار البيوت التي يجب ألّا يطَّلع عليها أحدٌ،

قلت له إني أنا أنت، فالشبه بيننا كبيرٌ في كلِّ شيءٍ، أخذتُ عنه أنفَه الشامخ وعقله المتَّقد كما يقول أغلب الناس عنه وعني، وأخذتُ عنه جسمه الفارع دون الانحناءة الخفيفة التي كانتْ مِن نصيب محيمد، كنتُ أحسُّ أنه أنا بتعديلاتٍ إيجابيةٍ وأحيانًا سيئةٍ، وأظنُّ أنَّ أكثر المغايرات سيئةٌ؛ أبرزُ أَوْجُه الشبه بيننا كانت الفكاهة والقدرة الكبيرة على إضحاك الناس بلمحاتٍ سريعةٍ خاطفةٍ وتشبيهاتٍ ذكيةٍ للأشياء مِن حولنا، والأكثر انتقاداتٍ ساخرةٍ لاذعةٍ تُضحك وتُبكي معًا؛ تُبكي الضحية وتُضحِك الآخرين.

الآن أحسب أنَّ فكاهتي ماتتْ معه، يبدو أنها تضخَّمتْ هي الأخرى مثل عضلة قلبه ثم انفجرتْ أو توقَّفتْ عن العمل فجأةً فدفنوها بحماسٍ وحبٍّ كما دفنوا أبي، لا أدري كيف يجتمع الحماس في الدفن مع الحُبِّ؟ ظهر حُبُّ أبي عند كثيرٍ مِن الناس مِن الأهل والأقارب والجيران وكلِّ رجال المحارب ونسائها عند الدفن، هل كانوا دون وعيٍّ ينفِّذون الأثر الذي يقول: إكرام الميت دفنه، وكانوا يريدون إكرامه؟ لا أدري، ولكنْ تأكَّدتُ بالفعل أني لستُ الوحيد الذي أحبُّه بصدقٍ، وأتعلَّق بحديثه

openkan.com

الحلو، وجلستِه الممتعة الكريمة وبسمته الساحرة.

أكره كثيرًا صوت حمد الذي أخبرني في الهاتف أنَّ أبي مات، أتجنَّبه مِن يومها، أنا أخوه الأكبر، وهو بعدي مباشرةً، وأشعر أنّه غريبٌ لا أعرف له أصلاً، جاءنا مِن المجهول الذي غالبًا ما سيكون مِن ناحية الشمال؛ ليربِيَه أبي ويُعاني مِنه مرارًا في كلِّ شيءٍ، المشكلة أنَّ حمد أيضًا يُشبِه أبي في كثيرٍ مِن الأشياء؛ لون بشرته فاتِحٌ أو أميلُ للبياض منّي وهو لون بشرة أبي، بشرةٌ فاتحةٌ تميل إلى الحُمرَة مع الشمس، بخلافي أنا الذي ازداد اسمرارًا كلَّما تزوَّدتُ مِنها، وقد كنتُ أحبُّها، وتروقني أحيانًا لسعتها في الصيف، وسعدتُ كثيرًا بذكائي الفطري وإحساسي الدقيق، حين قرأتُ وأنا في الثانوية العامة شيئًا عن فوائدها الكثيرة للجسم ولصحة الإنسان.

ليس في لون بشرته فقط يشبه حمد أبي، ولكنْ في التسرُّع كذلك، ويمكن تسميتها رعونةً، لا أذكر كثيرًا عن شباب أبي أو وهو في سنِّ حمد حتى أستطيع الموازنة بينهما، أتذكَّر أفعالاً وتصرفاتٍ فقط، لكنْ لن أكون موضوعيًا إنْ حاولتُ تقييم شخصيته بشكلٍ كاملٍ في شبابه؛

لأني لم أكن بالوعي الكافي، أو لأني لم أكره حمدًا بقَدْر ما أكرهه الآن فلم أَحْتَجْ للموازنة.

obeikan.com

-٢-

ما بقي مِن ديمة (١)

استيقظتُ مع نور الشمس الذي نهض مُستعدًا ليومٍ شاقٍّ مِن العمل، ومراوغةِ الغَيْم، ومُداعبة صفحة البحر الرطبة، المُخيفة، في الساعة السادسة تقريبًا، لا أذكر بدقةٍ كم تزيد عن السادسة، لكني أظنُّ أنها دقائقُ قليلةٌ، لبستُ القميص الوحيد واتَّجهتُ إلى البحر مستمتعًا بعناصر الطبيعة المُتكاسِلة التي نَوَت الصَّحْوَ ولكنها تتمنَّع وتَخْطُر في الدلع، صوت العصافير يملأ المكان ويذكِّر بإلحاحٍ بمعلوماتي الطفولية عن الأرض وعن خلق البشر مِن آدم وتكاثرهم وغاية خلْقِهم مِن التعمير ونشر الخير والحقِّ والفضيلة وأحيانًا تكون الغاية الموت والعذاب.

obeikan.com

المهمُّ أني استَعَدْتُ بفعل زقزقة العصافير الثقة واليقين في بعض المُسلَّمات القديمة عن الحياة وعن العمر والنمو الطبيعيّ للأشياء، آه! ومسلمةُ الموت أيضًا. عمومًا أنا لم أشكَّ في الموت، ولكنْ كنتُ أشكُّ أنَّ هذا الموت تسبقه حياةٌ أصلاً، أمّا الآن فبدأتُ أقتنع بأنَّ الفناء يسبِقُه ضجيجٌ قد يكون مُرًّا أو حلوًا لشيءٍ يعمل كالطاحونة يسمَّى بالحياة، تخيَّلتُ الشَّرود الأبيض يستطلع طريق الموت لي، وسينقضُّ عليَّ في اللحظة المُحدَّدة، وأنه يتبعني ليعرف هذه اللحظة.

روائحُ الورود جميلةٌ كذلك وتنبعث في كلِّ الخلاء حتى تصعّد إلى الأفق البعيد وتتسلَّق الهواء مستقرةً على عرشٍ جميلٍ بين السماء والبحر، اندمجتُ تمامًا في هذه اللوحة الطبيعية الجميلة وتناسيتُ كثيرًا مِن آلامي، ولكنْ كعادتي في لحظات السعادة تمنَّيْتُ أنْ يكون أبي معي؛ ليعبِّئ رئتيه بهذا الهواء النقيّ، لعلَّ تضخُّم عضلة القلب يُجامِله مرةً، ويتعاطف معه ولا تنفجر أو تتوقف العضلة فجأةً تاركةً في حلقه مرارةَ الغدر التي لا يُذيبها تآكُلُ كلِّ شيءٍ في القبر. آه لو سافر معي ليغيِّر هواءه كما قال لي! وطلب مني أنْ يسافر إلى أيِّ مكانٍ في القاهرة

ليقضي فيه بعض الوقت، ولكني للأسف تكاسلتُ أو بالأحرى تجنَّبتُ احتكاكه بهبة زوجتي التي يزيد كرهي لها عن كرهي لحَمَد.

حمد فيه ملامحُ أبى التي تشفع له، أمَّا هي ففيها ملامح أبيها التي تذكِّرني ببغضي الشديد له؛ أبو زوجتي يبدو رجلاً مصنوعًا من الشمع، أبيضَ مثلها، أو هي مثله، لا أدري، هما وجهان لعملةٍ واحدةٍ من البرود الذي ألمسه في الموت أو أستشعره في الفشل أو في منظر الحليب الذي أكرهه، رجلٌ قليلُ المجاملة، قليلُ الوُدِّ، قليلُ الحبِّ، كثير الحقد، كثير العزلة، مازال بعد بلوغه السبعين يتحدَّث بحماسٍ عن العقوبات التي كان يُوقِعُها على مرؤوسيه في العمل.

يكاد يكون الشيء الوحيد الذي يضحكه هو أنْ يحكي لكَ كيف فاجأ أحد العمال بمراقبته له أو اكتشاف خطأٍ ما في العمل، يسرع في توقيع العقاب ولا يتراجع عنه لأيِّ سببٍ، تقفز الحياة في عينيه وتنبت من جديدٍ في صورة ابتساماتِ غلٍّ وغرورٍ عتيقين حين يحدِّثك عن رجاء الناس له وتوسلاتهم بأنْ يكون رحيمًا بزميل سيِّء الحظ أمسك عليه

بثغرةٍ قانونيةٍ تثبت أنّه مقصرٌ في العمل أو ارتكب حمقًا ولم يستطع تسوية الأمر أو مداراته.

يخبرك بحماسٍ بأنه لم يتراجع عن عقوبةٍ أبدًا، حماسٌ أحسستُه مرضًا يجعله في عيني كائنًا لا تُحتَمل رؤيته، فما بالك بأنْ تُعاشِر قطعةً مِنه هي الأكثر شبهًا به في كلِّ شيءٍ؛ شكلاً ومضمونًا.

بكلِّ صدقٍ هي وأبوها أكثر التزامًا مني في الناحية الدينية، هو يحافظ على كلِّ الصلوات في المسجد وهي تكاد تكون كذلك، وهو يتحدَّث كثيرًا في الدين، وهي أكثر مِنه في التفنُّن في استخدام المصطلحات الدينية التي تردِّدُها كالببغاء مثل بعض السلفيين الذين تكرِّر مرارًا أنها لا تحبُّهم ولا تحبُّ طريقتهم وجلافتهم، لا أدري كيف ترفضهم وهي لا تتحدَّث إلا مثلهم، فلا تقول (سبحان الله) عند التعجُّب مثلنا، ولكن تقول (سبحان المَلِك) مثلهم، وتكرِّر بحاجةٍ واضحةٍ أو غير واضحةٍ: الله المستعان، تقولها تقريبًا في كلِّ جملةٍ، تفرضها فرضًا على الكلام.

في الفترة الأخيرة كنتُ أتجنَّب الحديث معها، وحين فكَّرتْ في عتابي

لم تَجِدْ غير طريق الدين لتقرِّبني مِنها، وتذكِّرني بالواجب الديني عليَّ لها بوصفها الزوجة المُحبّة المُتعاونة، أكثر مِن مرةٍ تؤكِّد حين أتجنَّبها أنَّ مشكلتي تكمُن في قلّة ثقتي بالله وسوء علاقتي بربي، أبتسم دون دفاعٍ حتى أتجنبَ المزيد مِن المصطلحات الدينية الباردة التي تبدو بها كآلةٍ لا يمكن أنْ تَمُتَّ إلى البشر بصلةٍ.

في أول أسبوعٍ بعد وفاة أبي، كسا الحزن كلَّ ملامحي فغرقتُ فيه، ولكني كنتُ في نظرها جذابًا، فبدأتْ مغازلتي، أو ربما استشعرتْ أنَّ الفِراش قد يخفِّف عني ويُنسيني بعض الألم، داعبَتْني فاستجَبْتُ بغِلٍّ، وكأني أنتقم مِن نفسي ومِنها ومِن الحياة التي تنبعث في أنَّاتها وتتبخَّر مِن جسمها، تمنَّيْتُ بعد الممارسة المكظومة أنْ أموت أو تنفجر عضلة القلب، ولكنَّ شيئًا لم يحدث، ورحتُ بعدها في سباتٍ عميقٍ لم أرَ فيه وجه أبي الذي كنتُ أنتظر رؤيته على أحرٍّ مِن الجمر.

تخيَّلتُ بعد الاستيقاظ أني سأخرج إلى الطريق الإسفلتي الذي يشكِّل حبلاً يربط المحارب بغيرها مِن البشر، وأقود السيارة بشكلٍ جنونيٍّ

حتى ينفجر إطارها الذي أنتظر انفجاره منذ مدةٍ، ولكنَّ شيئًا لم يحدث، فعرفتُ مِن حينها أني سأبقى عالقًا هكذا كأصحاب الكهف الذين انسدَّ عليهم الباب بصخرةٍ تدحرجتْ، وظلَّ كلٌّ منهم يتذكَّر شيئًا صالحًا يدعو به الله حتى يفرِّج همَّهم وتنزاح الصخرة ويخرجوا، سيطرتْ هذه القصة الواعظة التي سمعتُها كثيرًا في خطب الجمعة على عقلي وأحسستُ مِن يومها أني أحد العالقين في هذا الكهف.

رأيتُ انفراج الصخرة قد يكون بانفجار إطار السيارة الذي قد يفتح أبواب الخروج، وربما لهذا تهوَّرتُ كثيرًا في القيادة وتجاوزتُ السرعة خصوصًا وأنا بمفردي، وحين تزيد السرعة عن ١٢٠ كيلومترٍ في الساعة وأسمع صافرة التحذير الرتيبة أستشعر وجود أفعى تُصدِر صفيرًا تمهيدًا لأنْ تنقضَّ عليَّ مِن الخلف وتلتهم رأسي وتبلعها دفعةً واحدةً، وتبقى رجلاي على الدواسات ويداي على عجلة القيادة والدماء تندفع لتروي سقف السيارة حتى تقرِّر الأفعى شيئًا جديدًا فتقفز وتترك الباقي للطيور والغربان أو تُوقِف السيارة بعد أنْ تتحوَّل إلى وحشٍ عاقلٍ يفكِّر أو دون أنْ تتحوَّل، فتُوقِف السيارة على الطريق الصحراويّ وتُخفيها بين الجبال

obeikan.com

حامدةً الله على رزقه.

أصبحتُ أفرح كثيرًا بالفوضى المرورية والطرق التي تزيد حالتها سوءًا يومًا بعد يومٍ، فتكثُر المطبّات العشوائية وتتآكل الطرق وتتكسَّر ولا تجد أيَّ صيانةٍ، ورأيتُ أنَّ الخلاص قد يكون في هذه الفوضى، وتمنيتُ كثيرًا أنْ ألتقي قُطّاع طُرُقٍ ورقابٍ على الطريق الصحراوي، ويخرجوني مِن الحياة سريعًا بشرط ألا يكتشف أحدٌ الأمر حتى لا أكون مصدر العار لِمَن خلفي بعد أنْ كنتُ مصدر فخرهم، أعترفُ بكلِّ صراحةٍ أني جبانٌ لا أريد الانتحار رغم أني فكَّرتُ فيه كثيرًا، لا أدري لماذا أجبن عنه؟ هل هو خوفٌ مِن الموت على الكفر أم خوفٌ مِن الموت نفسه؟

الطُرُق هنا داخل القرية الساحلية في غاية التنظيم والروعة، تشجِّع على السرعة رغم المطالع والمنازل التي تفرِضُها الطبيعة الجبلية لأصل المكان، فكَّرتُ أنْ أركب السيارة وأربط عصابةً على عينيَّ بعد أنْ أوجِّهها إلى البحر أو إلى أحد المباني ثم أنطلق بأقصى سرعةٍ لعلني أجد باب الخروج، فكَّرتُ في أكثر مِن فكرةٍ للخروج ولكني كنتُ أؤجل التنفيذ إمّا

خوفًا أو لأنَّ الفكرة غير جيدةٍ أو لا تروقني ولا تتناسب مع شرف زيارة الموت الأولى لي.

كثيرًا ما أحسد نَدِيّة أختي التي ماتت وهي تَلِدُ ابنها حسام، ندية أكبر مني وتزوَّجتْ جعفر ابن عمي، أشعر أحيانًا بالغباء لأني لم أتوقَّع ميتةَ ندية الجميلة التي تناسب رونقها وجمالها، ندية زهرة البيت ونوَّارته ونداه الذي تبخّر فجأةً، بيضاء بحمرةٍ وعيناها واسعتان وجبهتها لامعةٌ دومًا، وذقنها مفلوجةٌ تنثر البهجة إذا ضحكتْ وتبدو أكثر روعةً وجمالاً إذا بكتْ، كان يجمعني بها حبُّنا الجنوني لأبي وتمرُّدها الدائم على أمي أسمى، موت ندية أصابني بالاكتئاب ولكني بقيتُ حيًا وطارتْ أحزانى مع اكتمال عامٍ على غيابها، ويحطُّ من جديدٍ حين أرى ابنها حسام فتجنَّبتُ رؤيته، وكثيرًا ما أرسلتُ له عيديته مع أبناء عمه، وحين أراه صدفةً أبكي وتتنازعني رغبتان متناقضتان؛ في قتله لأنه سبب فقدي لندية ورغبةٌ في رعايته لأنه سيحمل قلبها الطيِّب وضحكاتها التي تبثُّ المرح في كلِّ ركنٍ مِن أركان البيت.

آه يا ندية! لو جئتِ معي هنا إلى الساحل الشماليّ حيث الورود والعصافير والنظافة التي كانت شغلك الشاغل، كلُّ شيءٍ هنا نظيفٌ حتى الهواء ليس فيه أيُّ بغضاءَ ملموسةٍ كتلك التي تعبِّئ الطرق الآن في شوارع القاهرة أو في الطالبية التي سكنتها مؤخرًا أو في المحارب بين العائلات التي تتنافس على الفقر والقراريط المعدمة.

لا يلوِّث الهواء هنا إلا القليل مِن حكايات خالد عن القتل بين العربان وصراعاتهم، أنا لا أحسّها كثيرًا لأني لستُ جزءًا مِنها ولا تمسّني مباشرةً، وأحاول أنْ أتعامل معها دائمًا بسطحيةٍ وكأنها حكاياتٌ مِن عالمٍ آخر، أخشاها فقط حين أنوي الخروج بالليل للتجوُّل في القرية أو أذهب إلى خالد في الناحية الجنوبية مِن الطريق لأشاركهم السَّمر في بيتهم أو أسمع الأغاني البدوية التي يعشقها أبي وإنْ ظلَّ بعيدًا عنها في فترة قبل الموت، لم يَعُدْ يسمعها ولكنه بين حينٍ وآخر في جلساتي معه يُلقِي أو يغني مقطوعاتٍ ومجروداتٍ لعوض المالكي أو الصدّيق أبو عبعاب.

لا يعرف أبي، وأنّى له أنْ يعرف بعد الموت؟ أني بحثتُ على الانترنت

عن أغاني أبو عبعاب وعوض المالكي وسمعتُها أكثر مِن مرةٍ وحاولتُ أنْ أداوي بها وحدتي في شقة الطالبية التي صارت لي قبرًا نويت أنْ أُدفَن فيه حيًا وبكامل إرادتي.

الإسكندرية موطن الشاعر البدوي (أبو عبعاب) حسب حكايات أبي، وكذلك عوض المالكي، أو هما تقريبًا مِن مطروح، ومطروح جزءٌ مِن الإسكندرية لدى غير المتعلمين في الصعيد، في الصعيد يعتبر كلُّ الساحل أو أيّ شيءٍ على البحر ينتمي للإسكندرية، فالإسكندرية هي الوكيل الحصري للبحر ولحكايات المتعة واللهو ورونق حياة الأغنياء كما كنا نتصوّر، خدمة أبي في الجيش كانت في العلمين ومطروح، بعد أنْ نُقِل مِن الحرس الجمهوريّ لأنهم عرفوا أنّه مِن أصلٍ بدويٍّ، أُحِبُّ الإسكندرية؛ لأنّ أبي تنفس فيها الهواء النقيّ برئةٍ مليئةٍ بالحياة والأمل وهضم هواءها بعضلة قلبٍ سليمةٍ وعنيدةٍ كروحه، أخبرني أبي عن بحر الإسكندرية الذي يَهَبُ الفنّ والجمال، وداعب عقلي الطفل بأفكارٍ رومانسيةٍ عن الموهبة والطموح، وهمّة النفس التي لا تقبل بأيِّ شيءٍ تعيش عليه لمجرّد العيش وحسب.

بثَّ فيَّ الطموح وحفَّزني كثيرًا على أنْ أكون إنسانًا أولاً، ثم أنْ أصبح بين بني الإنسان الحقيقيين ذا مكانةٍ، أو هكذا أقيِّم كلامه القديم الآن، وأذكر جيدًا أنه حدثني بلا مواربةٍ أنْ أكون بالعلم شيئًا غير عاديٍّ، ترى هل وُفِّقْتُ أم أني لم أَرُقْ لِما كان يطمح إليه؟ عمومًا، أذكر أنّه قال لي يوم جاءني قرار التكليف بوظيفة مُعيدٍ في الجامعة: لقد جئتَ بالذئب مِن ذيله يا حميد! وكان فَرِحًا بشكلٍ لم أره مِن قبل.

اليوم لم آكل شيئًا مِن الصباح والساعة قاربت الثانية عشرة ولم أفكِّر أنْ أتحصَّن مِن الشمس ببرجولةٍ أو شمسيةٍ أو حتى بالنزول إلى البحر، عدْتُ إلى الشاليه مسرعًا وكأنَّ أملاً جديدًا ظهر لي في الحياة وعرفتُ فيها شيئًا يستحقُّ أنْ أسرع خطاي إليه، بدأ الجوع يستولي عليَّ ويداعب بالريبة عقلي وأحشائي، حاولتُ اختصار الطريق إلى القرية فخمَّنتُ الطُّرُق والاتجاهات وشعرتُ بلذَّةٍ وأنا أتابع اللوحات الرخامية التي كُتِب عليها أسماء مالكي الشاليهات والفلل، استهلكتُ مِن الوقت أكثر في الطريق الذي حاولتُ اختصاره بالسير بين القرى بدلاً مِن السير بموازاة الشاطئ.

حين دخلتُ مِن الباب كنتُ قد نسيتُ جوعي وشخصتْ أمامي وحدتي كما لو كانت تقاسمني غرف الشاليه، بدأتُ في وضع بعض الأطعمة على السفرة، وما إنْ فتحتُ الخبز وشرعتُ في الأكل حتى تذكَّرتُ أبي، والطعام الذي كان يحبه، والأطعمة التي أوصاه الطبيب بالتزامها في الفترة الأخيرة مُنبِّهًا أكثر مِن مرةٍ إلى ضرورة الابتعاد عن الأملاح والحارِّ والدَّسم والانفعال والمجهود، وتقريبًا هي كلُّ الأشياء التي يحبُّها، تُراه الآن يتزوَّد مِنها كيفما شاء، بعد أنْ أدَّى تضخُّم عضلة القلب دوره وأوصله إلى القبر ليزوَّد بالهدوء ويتخلَّص مِن عناء الحياة؟ الحقيقة أنَّ تذكُّري لأهلي وقت الطعام وأنا مغتربٌ عادةٌ قديمةٌ تَفْرِض نفسها عليَّ فرضًا، برغم أني أحيانًا أكرهها أو أشعر بعدم ضرورتها.

أكلتُ مُربَّعَ جبنةٍ وحيدًا وشربتُ بعض العصير الذي تأكَّدتُ أنه مِن نوعٍ رديءٍ جدًا، ثم دخلتُ الحجرة مُحاوِلاً النوم، أو الغياب عن الدنيا قليلاً.

في سقف الحجرة كنتُ أحملق وأركِّز النظر بحثًا عن لا شيء، دون خوفٍ مِن الزلازل التي تشكِّل لي وسواسًا أو هاجسًا غريبًا حين أنام في

مبنًى أكثر مِن ثلاثة طوابقَ، الزلازل هي أيضًا أحد أمراضي التي لا أعرف عددها حتى الآن.

بالمناسبة، لا أستطيع أنْ أعرف بدقّةٍ أني مريضٌ نفسيًا أم أني شخصٌ سويٌّ، ورغبتُ كثيرًا في زيارة طبيبٍ نفسيٍّ وكنتُ أتحمَّس، وينتهي الأمر إلى التأجيل، نعم لديَّ وسواسٌ مِن الزلازل، وظهرت المشكلة بشكلٍ أكبرَ حين كنتُ في المدينة الجامعية التي كانتْ مِن ستة طوابقَ، وسكنتُ في العام الأول في الطابق الخامس، ولم أستطع النوم المستمرَّ لأكثر مِن ثلاثِ ساعاتٍ في اليوم طوال هذا العام، حيث كنتُ أستيقظ على كابوسٍ واحدٍ بعد ساعةٍ أو ساعتين على الأكثر وهو أنَّ المبنى يَعصِف به زلزالٌ يُودِعُني تحت الأنقاض التي تبقيني حيًا تحتها لأيامٍ أعاني الجوع والعطش وتقرُّحَ جروحي، وأعاني مِن تفتيت كتل اليأس في أنْ يعثر عليَّ أحدُ أعضاء فرق الإنقاذ أو الدفاع المدنيَّ.

وحين انتقلت إلى الدور الثالث في العام الثاني زادتْ ساعات النوم قليلاً ولكنَّ الكابوس ظلَّ كما هو حتى اهتديتُ لأنْ أضع دائمًا مصحفًا مِن

القرآن تحت رأسي فغابت الكوابيس تمامًا، ولم تكن تعود إلا حين أنسى وضع المصحف، وأحيانًا كنتُ أصحو فجأةً مِن النوم مُناديًا على أحد زملاء الغرفة ليناولني المصحف مِن دُرْجِ المكتب فأضعه تحت الوسادة الإسفنجية المُلتهبة كالجمر لأنام بعدها نومًا لا تسكنه كوابيسُ الزلازل.

هنا لا توجد فرصةٌ للزلازل أو بالأحرى لأخطارها ووساوسها؛ فالمبنى مكوَّنٌ مِن طابقٍ وحيدٍ، ويحتاج زلزالاً بقوةٍ كبيرةٍ جدًا لأنَّ المنطقة صخريةٌ وتربتُها ليست رخوةً كأرض المحارب أو أراضي القاهرة الطينية، بالمناسبة تذكَّرتُ وسواسًا مِن نوعٍ آخر له نصيبٌ مِن أفكاري المريضة وساعات نومي التعسة، وهو أنَّ العمارة كلها تَميد بها الأرض أو تبتلعها تمامًا في حين يبقى كلُّ مَن فيها يعانون الموت البطيء بمياه الأرض الجوفية التي تقتحم الأبواب والشبابيك عليهم، ويعانون تفسُّخ الجدران مع عِظامهم ولحمهم ببطءٍ ومللٍ شديدين، وعيوننا جميعًا في هذا المبنى الذي يسكن الطين مملوءةٌ بالصمت والعجز والبكاء وأحيانًا التوسُّل الذي نعلم مسبقًا عدم جدواه.

openkan.com

هذا الوسواس تحديدًا بدأ يكثر في الفترة الأخيرة، وارتبط بفضولي الغبي في معرفة نوع التربة التي أقيمت عليها العمارة التي أسكنها، وغالبًا ما تكون تربةً طينيةً زرقاء، مِن الأراضي الزراعية شديدة الخصوبة، وغالبية مباني القاهرة، بل غالبية مباني مصر، على هذا النحو، إلا بعض المناطق القريبة مِن الجبال كبعض أحياء حلوان والسادس مِن أكتوبر وقد سكنتُ في بعضها.

الحقيقة أنا لم أذكر شيئًا لأيٍّ أحدٍ عن هذه الوساوس، حتى أبي، وفي المدينة حين كنتُ أهبُّ مفزوعًا مِن النوم حاولتُ أنْ أُقنِع زملائي بردودٍ مُخترَعةٍ لم تكن تُعجِزُني وكانوا يصدقونني كعادتهم، كما يصدقونني حين أتوقّع لهم أسئلة الامتحانات وتأتي كما توقعتُ تمامًا، باختلافاتٍ لا تزيد عن عشرةٍ بالمائة على الأكثر، النوم أصبح بعيدًا عني كالموت، لا نومَ، ولا موتَ ولا حياةً حقيقيةً أتفاعل فيها مع الناس كالبشر العاديين، أتحدَّث وأضحكُ بانطلاقٍ وبهجةٍ وإنْ غضبتُ أو حزنتُ يكون هذا أمرًا طارئًا يُطرَد بعد أقلِّ وقتٍ، أصبحتُ متيقِّظًا وزاهدًا في النوم لحدٍّ بعيدٍ، كما لو كنتُ لن أرغب في النوم مرةً أخرى.

خرجتُ إلى الصالة حيث التلفزيون الذي يشكو الإهمال مِن أمس، تجاهلتُ رغباته في العمل ونمتُ أمس، واليوم لم أفكِّر في مفاتنه المنتصبة في الصالة، شغَّلتُ التلفزيون ورحتُ أتنقَّل بين القنوات بيأسٍ، حتى استوقفني فؤاد المهندس مع يونس شلبي، يونس شلبي يكلِّمه برجاءٍ وتبجيلٍ، ويحاول أنْ يقنعه بأنَّ موضوعًا هامًا لديه، جذبتني طريقة أداء فؤاد المهندس وهو يقول: أيّ موضوع يخصّك يبقى تافه. صرامةٌ أو رزانةٌ ولكنها ضاحكةٌ، ساخرةٌ، أنا أحبُّ فؤاد المهندس جدًا، تفتَّحتْ عيناي على عمو فؤاد، ثم تنبَّهْتُ تدريجيًا إلى أعماله الأخرى الأقدم، وكنتُ أضحك مِن كلِّ ذرةٍ في قلبي، تلفزيون تليمصر أبيض، ١٦ بوصةً، جاء أبي باثنين وقد ربطهما بملاءةٍ كما لو كانت بُؤجة ملابسٍ هرب بها، التلفزيونان نفس الماركة، ويختلفان في الحجم، باع أبي الصغير بعدها بفترةٍ وبقي الأكبر الـ ١٦ بوصةً، وكان يدهشنا أَنّا وندية وحمد أمّا حسن فكان صغيرًا، ومحيمد لم يكن قد وُلِد.

مِن حقّي أنا فقط دونهم أنْ أقلِّب كثيرًا في بكرة تغيير القنوات مُمعِنًا في البحث عن الدهشة والإثارة في تلك النافذة المفتوحة على العالم

الجديد، عالم المدينة، نافذةٍ لم تكن متاحةً إلا لقلةٍ قليلةٍ جدًا مِن أبناء المحارب، تقريبًا لم يكن في المحارب غير أربع بيوتٍ فيها تليفزيون، سليمان الشافعي شخصٌ فريدٌ متفتح العقل، سابقٌ لأقرانه، طموحٌ وجريءٌ.

بقيتْ عائلتنا بعدنا أكثر مِن عشر سنواتٍ دون تليفزيون، بعضهم بدأ يفكِّر الآن في الأمر وفي المجازفة، وبعضهم نسي أو ربما لم يعرف أصلاً أنَّ هناك اختراعًا اسمه التلفزيون، وانشغلوا بالتليفون المحمول.

سليمان الشافعي شكّل شخصيتي بأفعاله الجريئة وطُمُوحِه، ولولاه لكنتُ إنسانًا عاديًا، لا أنشغلُ كثيرًا بالتفاهات، يستمرُّ بكائي كثيرًا بعد موت أبي فيسخر الآخرون مني ومِن ضعفي ومِن حنيني الذي يشبه حنين النساء ورقَّتهنَّ، بعضهم للحقيقة تفهّم الأمر وقال إنه شخصٌ مثقفٌ وحساسٌ ولا يشعر بالأمور مثل بقية الناس، وبعضهم لام عليَّ صلتي الضعيفة بالله وأني لا أتقبَّل حكمه وقضاءه بسهولةٍ، برغم أنهم يرونني في المسجد في كلِّ صلاةٍ، مِنهم مَن قال إنه ليبراليٌّ علمانيٌّ كافرٌ، ولكنه

يداري حقيقته أمام الناس في المحارب ليحافظ على حبهم، وتذكَّروا بالتأكيد مواقفي البارزة التي لا تُنسَى، وأولها موقفي في انتخابات الرئاسة في ٢٠٠٦ وحثِّي الناس على انتخاب أيمن نور مقابل مبارك، ثم موقفي مِن استفتاء مارس ٢٠١١ وترغيبي في الناس بالتصويت بلا في مواجهة غزوة أهل الجنة الذين اعتبروا التصويت بنعم تأشيرة المرور إلى النعيم، وكلُّهم رأى زهدي فيه، بإصراري وتمسُّكي بـ(لا) التي لا يرون إلا الليبراليين والعلمانيين مُتمِّسكين بها.

يا أيُّها الناس، هل أحتاج لأنْ أصرخ فيكم وأذكِّركم كلَّ مرةٍ بأني ابنكم القديم ذاته الذي حفظ القرآن صغيرًا في كُتَّاب الشيخ مجاهد ورأيتموه جميعًا وهو يبزُّ الخطى إلى المسجد عقب كلِّ أذانٍ؟ هل أحتاج لهذا أم أحتاج للحوار والإقناع أم أحتاج للخنوع والرضا وإطلاق لحيتي وترديد ألفاظ المنافقين؟ أمثال أبناء جمعة أبو هارون الأيتام الذين تحوَّلوا إلى خليةٍ إرهابيةٍ، قُبِض على أخيهم الأكبر وقد كان من قيادات الجماعة الإسلامية وبقي في المعتقل أكثر مِن ١٢ سنةً، وخرج قبل الثورة بثلاث سنواتٍ ومازال يَجني التعويضات مِن الحكومة حتى الآن! هل أحتاج لأنْ

openkan.com

أكون مثلهم تمامًا في الزيِّ واللحية حتى تتذكّروا صلتي القديمة بالقرآن والإسلام ولا تشوِّهوا صورتي الطفلة التي أحبُّها وأعيش فيها حتى اليوم؟ أم أحتاج للهرب بعيدًا عنكم إلى الساحل الشمالي حيث جمال الدنيا، وربّ العالمين الجميل الذي أعرفه بجماله لا بعذابه؟ أعرفه بحبِّه لا بالرغبة في الإحراق والتلذُّذ بالتعذيب.

يا أيُّها الناس، لا لن أتكلم حتى لا تزيدَ النارُ عند النفخ فيها، ولا يزداد الأمر إلا لغطًا وتشويشًا، فأنا أكاد أكون فاقدًا تمامًا للطريقة المثالية في التواصل معهم، فلم أعدْ أتحدَّث ببساطةٍ مثلهم، بعيدًا عن المصطلحات العلميّة والسياسية الشائعة في أوساط المثقفين، ألُوكها كما لو كانت شوكًا أدمنتُه.

أذان العصر تسلَّل حانيًا مِن خلل الشُّباك الخشبيّ القديم، وحرّضني على التلذُّذ بنقاء الوضوء والتخلُّص مِن أدراني التي أثقلتْ عقلي وأجهدت روحي، خرجتُ إلى المسجد باحثًا عنه بين الشاليهات، حتى لمحتُ المئذنة في مُنخفَضٍ بعيدٍ، دخلتُ المسجد فلم أجد فيه أحدًا على

الإطـلاق، صلَّيتُ ركعتين، وانتظرتُ حتى دخل شابٌّ وصلَّيتُ معه، وعرفتُ بعد الصلاة أنه يأتي ليؤذِّن ثم يذهب ويعود ويصلِّي بمفرده كلَّ فرضٍ، إلا الجمعة، حيث يأتيه العاملون وبعض النزلاء غير العاشقين للبحر ويأتونه دون موعدٍ أو موسمٍ.

اسمه عبد الله وعمله في المسجد ويتقاضى عليه ٦٠٠ جنيهٍ، ولكنه يلجأ إلى العمل في جمْع التين أو عَزْقه ورعايته حتى يحسِّن دَخْلَه، ويبيتُ في حجراتٍ صغيرةٍ على الجهة المقابلة مِن الطريق التي تشقُّ الرمال مُتَّجهةً إلى الغرب، طلبتُ مِنه أنْ يأتيني بطعامٍ مِن المحلات التي يعرفُها جيدًا ويعرف الجيِّد منها والرديء، وطلبتُ أنْ يأتيني بوجبةِ سمكٍ تُشعِرُني بشقاوة البحر وتمنحُني بعضًا مِن هيجانه ونشاطه الدائميْن.

ديمة كانتْ تحبُّ الجمبري، قالتْ لي أكثر مِن مرةٍ خلال ثلاثة أشهرٍ فقط إنها لو خُيِّرتْ أنْ تُمنَح صنفًا واحدًا مِن الطعام لا تأكل غيره طول حياتها لاختارت الجمبري، ديمة هي جنَّتي التي أرجو العودة إليها يومًا مِن الأيام، وإنْ كنتُ أشكُّ أني سأستطيع العودة لأبوابها مرةً أخرى.

جاءني عبد الله بالسمك والجمبري، البلطي مشويٌّ والجمبري مُحمَّرٌ كما تحبه ديمة، هي لا تأكل البلطي أو غيره من الأسماك، سَلَطة الجمبري هي وجبتها المفضَّلة التي تحبُّها، أعدّتْها لي مرةً، جاءتْ بالجمبري وحمَّرتْه بزيت الزيتون في الفرن، ثم أضافت له شرائح البصل والطماطم وورق الخسّ وأضافت الحَبّهان والفلفل والبقدونس، وكانت لذيذةً جدًا، كنتُ آكلُ وعيني في عينيْها، لا تبعدان كثيرًا عن ملامحها المتناغمة التي تُشيع البهجة في كلِّ ركنٍ في شقة أكتوبر التي كانتْ جنَّتي طوال خمسة أشهرٍ.

الطعام الدافئ مَنحني القدرة على الشعور بالحياة مرةً أخرى، وأخرجني مِن قبو القبر الذي أسكنه، ذكَّرني الجمبري بديمة فتركتُ لها نصف الجمبري لعلَّها تزورني وتأكله، فلا أشعر بالعجز حين تأتيني ولا أجد لها الطعام الذي تحبُّ، ديمة كانتْ النعيم الذي انتظرتُه منذ الطفولة، هي المعنى الحقيقيّ للزواج الذي أتلهَّفه مِن قديمٍ جدًا.

هي نموذج المرأة والفتاة الجديرة بالحبِّ والحياة، والجديرة بالإخلاص

والجديرة بأنْ تكون زوجةً واحدةً ووحيدةً لا أفكِّر في الزواج بغيرها في حياتها ولا بعد موتها، ديمة نورٌ لازَمَني خمسة أشهرٍ فأعطى لحياتي لونًا جديدًا وطعمًا ساحرًا، مرهفةُ الحسِّ، ترغب في الحياة، منظَّمةٌ ومرتبةٌ ولكنْ ليس إلى حدِّ الرتابة أو النمطيّة أو الملل، تستطيع أنْ تدرك جيدًا موقعها مِن الحياة وتعرف جيدًا ما يجب فعله، دائمًا تعرف ما الذي يجب فعله، ولكلِّ وقتٍ فِعْلُه المناسب الذي لا تخطئه أبدًا.

أظنُّها نموذجًا للإنسان عمومًا وليس للمرأة أو للفتاة فقط، تعرف متى تتعرَّى ومتى تستتر ومتى تبوح بمشاعرها ومتى تُخفيها ومتى تلمِّح ومتى تصرِّح، ديمة نموذجٌ خلقه الله ليتعلَّم الآخرون منها، هكذا كنتُ أحسُّها، ولا أظنُّ أني مُبالِغٌ في هذا، فأنا بطبعي انتقاديٌّ وحادٌّ جدًا، وأحيانًا لا يعجبني العجب كما كانت تقول هبة زوجتي، ديمة زوجتي وهبة كذلك، وبرغم أنَّ هبة تسبِق ديمة فمعنى الزواج الحقيقيّ عشته خمسة أشهرٍ في جنَّة ديمة السورية المرفَّهة التي أذلَّتها الحرب والهجرة إلى بلادٍ تجهلُها وتجهل أصلها.

دخلتُ أموّن السيارة مِن إحدى محطات البنزين في السادس مِن أكتوبر، وأثناء خروجي وجدتُ امرأةً جميلةً تشير لي كأنها تعرفُني جيدًا وتطلبني في أمرٍ مهمٍّ، تفحَّصتُ مِن وراء الزجاج ملامحها فكنتُ أزداد يقينًا أني لم أعرفها مِن قبل، أعجبتني فتمهَّلتُ، فتحتُ الزجاج، وجاءتني تخبرني بأنها تطلبُ المساعدة، وتأسَفُ إنْ كنتُ غير مؤهَّلٍ لمساعدتها، وتؤكِّد أنه لا يوجد أدنى حرجٍ على إنْ لم أفعل.

ركنتُ السيارة بعيدًا عن المخرج ونزلتُ لأوضِّح لها أني لم أكنْ أفهم ما تريد، وقلتُ إنَّ الأمر هيِّنٌ، واقتسمتُ ما معي معها، ليس رغبةً صادقةً في المساعدة بقدر ما هو تجاوبٌ مع جمالها ورقَّتها، وسيطرتْ عليَّ فكرة «ارحموا عزيز قومٍ ذلَّ»، وتذكَّرتُ عادل إمام في فيلم المتسول، كرهتُ الحرب والحكام وكلَّ أسباب التشرد لهذا الجمال ولهؤلاء الفارين مِن الموت.

فضولي سيطر عليَّ ودفعني للحديث أكثر، يبدو أنها كانتْ بحاجةٍ لِمَن يؤنس وحشتها ووقوفها في الشارع لأوقاتٍ طويلةٍ على غير العادة، وأنا

واقفٌ معها جاءت فتاةٌ أخرى تبدو أصغر وأجمل، جمالها تعكِّره بوادر القلق والخوف وبعض الاكتئاب، عرَّفتني بها قائلةً هذه ديمة ابنة عمي، وأنا اسمي أمل، هي درست إدارة أعمال، أنا كنتُ أعمل ماجستير في طبِّ الأسنان وكلُّ شيءٍ توقَّف الآن، ملابسهما أنيقةٌ برغم الوقوف في الشارع لمدةٍ طويلةٍ، ابتسمتُ وبشجاعةٍ طلبتُ منهما أنْ أعزمهما على العشاء.

تردَّدتْ ديمة وأعلنتْ هي موافقتها أولاً بالابتسامة ونظرتْ لديمة وكأنها تستحثُّها على القبول أو لتأخذ رأيها بشفرةٍ خاصَّةٍ بينهما، ربما استشعرت أنَّ هناك استلطافًا بينها وبيني فأعلنتْ عن موافقتها بسؤالٍ عن نوعية الطعام الذي أنوي تقديمه لهما، فهي لا تحبُّ أغلب الأكلات هنا، فرحتُ وارتبكتُ فركبتُ السيارة قبلَهما ثم طلبتُ أنْ تركبا، نظرتا لي باستحياءٍ ودخلتا بوجلٍ وخجلٍ.

سألتُهما هل تريدان أنْ نذهب إلى وسط البلد أم هنا في أكتوبر، فأخبرتني أمل أنهما لا تريدان الذهاب بعيدًا عن السكن في أكتوبر، فطمأنتُها أني

سأعيدهما مرةً أخرى، وانطلقتُ إلى وسط البلد، أفطرنا جمبري وكانتْ المرة الأولى لي، وشربنا شايًا وتحدَّثنا وتبادلنا أرقام الهاتف، ومع تكرار الاتصال وجدتا فيَّ مُسلِّيًا وصديقًا ومُخفِّفًا بعض عذاب التشرُّد والاغتراب والوحدة في بلدٍ تحيطهم فيه نظرات العطف الذابحة، ووجدتْ فيهما عوضًا عن ضياعي وتشرُّدي الذي لا ينقطع بعدما ازدادت المشاكل بيني وبين حمد وصرتُ أتجنَّبُ الذهاب إلى المحارب لأستمتع بالجلوس مع أبي، أو أهنأ بحوارات كميل أو نميمة شعبان.

بدأتْ بوادر الإعجاب بيني وبين ديمة التي كنتُ مغرمًا مِن اليوم الأول بملامح وجهها، أعذب وجه أنثى رأيتُه، لم أكن أفكِّر كثيرًا في جسمها حين كنتُ أتخيَّلها في حضني أو أتخيلها زوجةً لي راغبةً في المتعة، صرتُ أتحدَّثُ معها على الياهو كثيرًا، بالساعات، وصرتُ أعطيها أحيانًا آخِر ما معي مِن مالٍ، ولجأتُ للاقتراض مِن بعض أصدقائي.

أحيانًا تخبرني بمشاكل الإيجار وتأخُّره، وأحيانًا تخبرني باحتياجها لبعض الملابس، كنتُ أستمتع بمطالبها، وأحيانًا كنتُ أبادر بتخمين احتياجاتها

وأحاول سدَّها ومفاجأتها، لم تكن تعتني كثيرًا بالرفاهية في مقابل الاحتياجات الأساسية مِن مأكلٍ ومشربٍ.

أصبحتُ ألتقيها بمفردها دون أمل التي استشعرتْ ما بيننا من إعجابٍ، ثم كانت الليلة التي فاجَأنا المأذون قبل أن نفاجئ أنفسنا، وتزوَّجنا وقلَّتْ نفقاتنا بعد أنْ أصبحت أدفع إيجار شقَّة أكتوبر المتواضعة فقط بدلاً مِن إيجار شقَّتين، وسافرت أمل إلى فرنسا حيث ابن عم أبيها العجوز.

opelikan.com

-٣-

الحاجة نُصرة الشافعي

مازال يتملَّكني الغرام القديم بمتابعة الحاجَّة نُصرة وترصُّد حركاتها وسكناتها، نُصرة هي الأمّ الحقيقية لي وهي الدنيا بأسرها، دكَّتها وسريرها وبخورها وفلوسها المعطّرة وبطاطتها المسلوقة والسوداني المطحون، كلُّ شيءٍ لها ومِنها وفيها أتأمَّله في ذاكرتي التي أصبحتْ صحرائي التي أنقِّب فيها بدرايةٍ وخبرةٍ وصبرٍ فأعرف مواضع السلوان والمتعة.

نُصرة تحبُّني كرَجُلِها الوحيد، كما كانت تقول دائمًا، دلَّلتني كثيرًا دون بقية أطفال العائلة، وحسدوني على أصابعي الطفلة التي تَخرُج مِن

obeikan.com

حجُرَتها ممتلئةً بالشلنات والفكّة أو بالحلوى أو السوداني أو البطاطا، في الأفراح كانت تناديني فأجري لحضنها وأستقرُّ بين فخذيها المكتنزيْن وأداعب شعرها المُرسَل مِن حردتها الغالية التي تحسدها عليها النسوة، تخبرهنّ بقرقعة: حميد عريسي، تقرقع ضحكات البنات في الصالة وترمُقني أسمى بنظرة الغلِّ المَمزوجة بالأمومة الحانقة على طفلٍ شاردٍ مِن حضنها.

نُصرة بيضاءُ كالشمع ولكنَّ قلبها كجذوع نخل أبيها المُصطفِّ على جانب طريق المحارب يحرسه ليلَ نهارَ، يحرسه في النهار مِن قسوة الشمس وفي الليل مِن أعين الغرباء المُرابطين تحت بطاطين النمر التي أرسلتُها لهم، الغرباء الذين يعملون في أرض نصرة كثيرون، يذهبون ويأتون في موعدهم المعتاد مِن أول سبتمبر مع أول عود ذرةٍ يقع على الأرض مُثقلاً بغلَّتِه، ويستمرُّون حتى تقطيع حطب القطن بعد قفول الحمير مُحمَّلةً بأطنان الذهب الأبيض والجِمال تحمل أحمالَ الحطب والبوص.

الغرباء يُقيمون أفراحًا كلَّ ليلةٍ يغنّون فيها ويصفِّقون ويأكلون فطائر

الحاجَّة نُصرة بلهفة الحالِم، الحاجة نُصرة تُكرِمُهم لأنهم أغرابُ ولأنهم فقراءُ، وتؤكِّد دائمًا أنَّ أحدًا لا يستطيع أنْ يعوِّضهم أبدًا عن غربتهم عن (عبّ) المرأة، تنطق كلمة عبّ بإيحاءٍ جنسيٍّ كنتُ أستشعره في عينيها المحرومتين المليئتين بالصرامة والجَلَد والتماسُك، أو بالأحرى بالمُعانَدَة.

المُحارب دون نصرة كحياتي دون ديمة؛ نصرة طفولتي، كان فيها تَدَلُّلي ومتعتي وأملي في حياةٍ تشبه العزَّ الذي كان يلفُّها لفًّا، المُحارب دون نصرة كمقبرةٍ، هي الابنة الوحيدة والوريثة للشيخ محمد الشافعي عمّ أبي؛ سليمان، سليمان الوحيد الذي تُفاخِر به، لم تفاخرْ برجلٍ في المحارب كما تُفاخِر بسليمان ابن أحمد الشافعي ابن عمها، ولم تُفاخِر بطفلٍ كما تُفاخِر بحميد الذي لم تره وهو حاصلٌ على لقب دكتور، لم تره وهو يحاضر للطلاب في الجامعة ولم تره وهو في زفةٍ كبيرةٍ تعلن عن زواجه بديمة ليس لأنها ماتتْ قبل زواجه مِن ديمة وإنما لأنَّ زواجهما كان محفوفًا بالسريَّة ومطبوخًا بالعشق والرغبة والحبّ.

عينا نصرة كعينيْ ديمة، وقوّة جمالها؛ عرفتُ معهما أنَّ للجَمال قوةٌ كقوّة الجِمال التي تحمل الحطب إلى الجرن وتحمل الغلال إلى الطاحونة وتَعْبُر بحر يوسف في اتِّجاه الشمس البرتقالية التي تمنيْتُ كثيرًا أنْ أضعها في حجري وألعب بها.

فوق ديوان الحاجَّة نصرة كنتُ أتابع الشمس في الغروب وأتابع الديوك الروميّة وهي تُصدِر أصواتها العازِفة المميَّزة، عرفتُ أنَّ الديك الرومي يزداد هياجًا مع رؤية شخصٍ يلبس اللون الأحمر، فكنتُ أصطاد الأطفال الذين يلبسون أيَّ شيءٍ أحمرَ أو له صلةٌ بالأحمر، وأستدرجه للسطح حتى أستمتع بمطاردة الديكِ الرومي له، ورعبِه الشديد مِن هذا الطائر الكبير الذي ينتفش كالطاووس مع كلِّ مرةٍ يرى فيها الأحمر.

وفي الثانوية العامَّة ومع ازدياد قراءاتي في السياسة ظننتُ أنَّ الديك الرومي يكره الشيوعية والشيوعيين وأن عداءه للأحمر له أساس. تابعت كذلك من هذا المكان المرتفع الشردان والجديان الصغيرة وهى تتشاجر وتقفز فرحا أو حزنا أو تخويفا لبعضها، ودائما يتعالى عليها جميعا

الشرود الأبيض النظيف حديث الولادة اللامع.

فوق سطح ديوان الحاجَّة نصرة أو البيت الكبير الذي ورثَتْه عن أبيها الشيخ محمد الشافعي كنتُ أتابِعُ الجميلات في البيوت المُنخفِضة أو بالأحرى في العشاش الطينيّة البعيدة ولم أكنْ أتخوَّف مِن الزلازل أو العمارات التي تبتلعُها الأرض، وفوق السطح كثيرًا ما طمعتْ في براءتي الحسناواتُ ومِلْنَ بي نحو عِشَّةٍ مِن العشاش يقبِّلْن ويحكُكْنَ جسدهنَّ المُنتظِر في جسدي الطفل الصغير، نعيمة فعلتْها كثيرًا، وكانتْ الحاجَّة نصرة تستشعر رغبتها دائمًا، والغريب أنها لم تعنِّفْها يومًا أو تَلُمْها على تأخُّرِها فوق سطح الديوان، برغم تيقُّنها مِن أنَّها كانتْ تعبث بطفولتي.

نصرة تحبُّ الحياة بكلِّ ما فيها حتى الطمع والجنس، تحبُّ الرجال وهي التي لم تصبرْ على المعيشة مع خيري لأنه فقيرٌ ولا يريد شيئًا مِن طعام أبيها وأمواله، خيري كان وسيمًا أبيضَ بعينيْن زرقاوين كما الإنجليز، لولا فقرُه لظنَّ الناس أنه بقيةُ عساكرهم أو جنودهم، خيري شقيٌّ يصطاد السمك مِن بحر يوسف ومِن ترعة المحارب أو المشروعة كما يسمَّيها

الجميع، نصرة قويّة الجسد كنتُ أتخيَّلُها كملكةٍ مثل ملكات النحل تقتل أزواجها بعد التزاوج، خيري طلَّقها أو بالأحرى هي انفصلتْ عنه إلى بيت أبيها (الديوان) بعد ما ضاق بها بيت الرحبة الصغير، وأُجبِر بعد ذلك على تطليقها وتزوَّج قريبةً له مِن قريةِ المدور البعيدة وجاء بها ليلاً على حمارٍ أبيضَ دون خوفٍ مِن قُطّاع طُرُقٍ أو ذئبٍ جائعٍ.

ظلَّ الناس يَحْكُون عن شجاعة خيري وجسارتِه وهي تسمع بتأفُّفٍ وتبصق على الأرض وكأنها تلفظ ما بقي مِن ريقه الذي مصَّته يوم كان يخلو لهما ليلُ بيتِ الرحبة الصغير، هي تشتم كثيرًا ولا يُخيفُها أحدٌ، لا شيخُ البلد أو عمها (أبو سليمان) الذي عرفتُ أنه جدي الذي لم أره، ومات وأبي طفلٌ في التاسعة.

ظلَّ أبي يحدِّثني عن جدّي دون أنْ أعرف أنَّ اسم جدّي أحمد، لأنه لا يقول إلا كما يقول كلُّ الناس (أبو سليمان)، سليمان ليس الابن الأكبر ولكنَّ الشيخ أحمد الشافعي أصرَّ أنْ يناديه الناس بأبي سليمان بدلاً مِن عبد الحميد ابنه الأكبر الذي يكبر سليمان بثمانية عشرة عامًا،

عبد الحميد ابن الحاج أحمد الشافعي كان مقامرًا متهورًا، وكان صديقًا للمقدَّس حليم والد كميل صديقي، المقدَّس حليم رجلٌ ظريفٌ وثريٌّ وشجاعٌ، لديه استعدادٌ لمشاركة أيِّ رجلٍ صاحبِ خبرةٍ في الزرع ولديه همةٌ، ولا يتردَّد في تأجير فدانٍ أو أقلَّ أو أكثرَ لأيِّ مسلمٍ يقصِدُه راجيًا أنْ يوافق حتى يستطيع أنْ يُطعِم بقرته أو أولاده.

كميل بخلاف أبيه؛ لا يعبأ كثيرًا بأموال أبيه الوافرة، يحبُّ السيارات ويُغِير فيها، ويحبُّ شجرة الجميز ويجلس معي كثيرًا تحتها في أرضهم الواسعة، يحبُّ الشِّعر ويحبُّ الغناء، ويعشق فيروز ومحمد منير ويأتي بالجديد من الأغاني الجيدة دائمًا ويُسمِعُني إيّاها وهو في غاية النشوة، كميل صديقي الكبير الذي حدّثني عن فرح أبي بأسمى، يؤكِّد أنه لم يشاهد فرحًا مثله بعدها، أخذتْ أغلب جميلات العائلة موافقة الرجال للدخول إلى حلقة التصفيق ورقصن، التصفيق والرقص استمرَّ سبعة أيامٍ بلياليها، جَلَبةٌ في كلِّ المحارب، والحاجّ أحمد لم يكن جالسًا على الدكّة الرئيسية بوصفه أبًا للعريس، بل حلَّتْ محلَّه الحاجّة نصرة، كانتْ تُصفِّق مع الرجال على إيقاع تصفيقهم مُحاوِلةً أنْ تحتفظ بدرجةٍ مِن الرِّقة

تحفظ لها أنوثتها.

تنادي على الطبَّال وتُوصي له بالشاي والدخان والطعمية والبطاطس بالليل وأحيانًا الفطير واللحم والطيور بالنهار، «عارف يا ابن أبو طبلة لو الصقف بطَّل دقيقة همشيك أنت وأهلك من البلد، ولو عملت اللي أنا عيزاه يبقى يا سعدك يا هناك.»

يعود مسرعًا واللعاب يسيل مِن شدقيه ويتناثر على التراب في الحُوش المتَّسع أمام الديوان، يدخل إلى الدائرة ويَنطِق بعزمٍ وقوةٍ كأنما يحيِّي العلم في طابور الصباح:

استر يا ساتر يا ستار

الشقّ الشرقي راح دمار

.....

اتـدحـرج واجـري يا رمـان وتعالى على حجري يا رمـان

أنا حجري حنيِّن يا رمان يـاخدك ويـميـل يـا رمـان

بعد أسبوعٍ واحدٍ انقلبت نصرة على أسمى العروس وأضحتْ تُكيل لها ولأهلها الشتائم لمجرَّد أنها رفضتْ أنْ تصبَّ لها ماء الوضوء حين جاءتها مُحمَّلةً بالأسبتة والمشنات المليئة بالطيور المُريّشة والفطير والعسل والخضروات واللحوم، ضربتْها على وجهها وتركتها وقفلتْ عائدةً إلى الديوان تنثر الشتائم في شوارع المحارب الضيقة، وسليمان لم يَمِلْ إلى عروسه الجميلة وأظهر انحيازه الواضح إلى نصرة، وبعد أسبوعٍ مِن ولادتي أصرَّ أنْ يَحملني إليها في الديوان حتى تُباركني وتمنحني العقد ذا العملات الفضة وتمنحني مِن شرودها ووحدتها، كأني لم أعدْ مِن عندها منذ هذا اليوم، شَبَبْتُ على حبِّها ومتابعتها ومراقبتها في كلِّ صغيرةٍ وكبيرةٍ وكَرِهَتني أسمى بسببها وكأني ابنٌ لامرأةٍ أخرى تُشارِكُها زوجها.

يومُ وفاة نصرة يومٌ فاصلٌ في حياتي، احتشد كلُّ الرجال، وكلُّ النساء إلا أسمى التي أظهرت شماتتها وأعلنتْ فرحتها دون أدنى مواربةٍ، ماتتْ يوم ظهرتْ نتيجتي في الثانوية العامة، لم تعرفْ بالطبع نتيجتي أو تبارك لي وتعطيني بيدها عشرين جنيهًا وربَّما أكثر كما فعلتْ في

المرَّات السابقة، صُعِق عمّي عبد الحميد حين رأى العُقود المسجَّلة التي باعتْ لي بها نصرة فدادينها كلَّها، خرج هائجًا كالثور وأنا أبكي في وسط الديوان فجذبني مِن رقبتي وصرخ بأعلى صوته: «حيلتك أيه عشان تقدر تشترى اتناشر فدان، تاخد العلام والأرض وعيالنا تسرح وراك زي الكلاب. مِن بُكرة الصبح تروح تبيع لي.»

خرج سليمان ونظر له نظرةً أسكتتْه وجعلتْه يفكُّ يديه المُنكمِشة على عنقي تعتصر دموعي، ولا أدري لماذا أبكي أو لأيِّ سببٍ تفضحُني دموعي أمام عمّي عبد الحميد وأولاده وتنهمر بهذا الشكل، كلُّ شيءٍ باعته نصرة وسجَّلته لي؛ الأرض والديوان والطاحونة، والبهائم التي تملكُها لدى الفلاحين كتبتْ أوراقًا تُثبتُ شَراكتي أنا فيها بدلاً منها، عشرون بقرةً بولدها كما قال عمّي عبد الحميد.

بعد أسبوعٍ ذهبتُ إلى عمّي عبد الحميد في الغيط وفاجأته بزهدي الذي أضحى سِمةً ضخَّمها وبالغ فيها الجميع لغرضٍ وطمعٍ فيهم أو بغير غرضٍ، كلُّ مَن احتاج شيئًا مني جاءني مِن هذا المدخل، أني لستُ في

حاجةٍ لشيءٍ ولستُ مِن الطامعين، نتج عن هذه الجلسة أنَّ عبد الحميد له الزرع ولي المُلْك على الورق، طلب أنْ أعمل له عقودَ إيجارٍ حسب الضريبة أو إيجارٍ بالنظام القديم ورفضتُ بذكاءٍ طمأنه، قلتُ له إني لا أريد أيَّ شيءٍ إلا شَرَف مُلْك أرض جدتي حسب وصيتها، بصق وأشاح بوجهه حين ذكرتُ نصرة ابنة عمه، فآثرتُ أنْ أتركه وأمضي مكتفيًا بهذه النتيجة التي توصَّلْتُ إليها معه.

هدأتْ نار عمي عبد الحميد سنينَ طويلةً عليَّ وعلى أخيه سليمان أبي، وأكثرَ مِن الكلام الطيب عني وعن اجتهادي في الدراسة وحسن أخلاقي، ويومَ جاء أحدُ رجال المحارب بجوابٍ مِن البوستة يُفيد بتكليفي بوظيفةِ مُعيد في الكلية تكفَّل هو بكلِّ شيءٍ وجاء بالمطربين وذبح عجلاً وزَّعه على الفقراء وأعدَّ طعامًا في الديوان بعدما احتلَّه هو وأبناؤه وأبناء أبنائه وأزواجهم، ومِن يومها لم يتركوه، وجاء بمطربٍ مغمورٍ لم أسمع عنه قبلها أو بعدها، وأقسم أيمانًا أنه أخذ عشرين ألف جنيهٍ كما أقسم وبالغ في باقي مصروفات الاحتفال.

ظنَّ عبد الحميد أنَّ الوظيفة هي التي ستُريحه مني إلى الأبد وأنها هي التي ستذهب بي بعيدًا ناحية الشمال حيث أَصْلُ الرياح التي لا تستطيع أنْ تعود بالموظفين ذوي المركز الجيد معها وهي قادمةٌ إلى الجنوب، فهي دائمًا تُعيد العمال الفقراء الذين يذهبون للعمل في السيدة عائشة في سوق العُمّال أو في المعادي في سوق عُمّالٍ آخر، أو يعملون في المزارع والدواجن في الإسماعيلية، أمَّا الموظفون المرموقون فدائمًا لا يعودون ثانيةً إلى الجنوب إلّا مرةً واحدةً، حيث يرقدون رقدتهم الأبدية في مقبرةٍ صغيرةٍ بحوار مقام الشيخ المحارب الذي سُمِّيت البلدة باسمه.

حتى الآن تسير الأمور على النحو الذي يريده عمّي عبد الحميد، فشَتاتِي يزداد يومًا بعد آخر، وأصبحتُ مُعلَّقًا بالمجهول وبالبعيد وبالراحلين عني، ولا أعرف سبيلاً إليهم؛ أبي راقدٌ في المقبرة بجوار الشيخ المحارب ونُصرة في المقبرة المجاورة له، ولا أدري إنْ كان قد التقيا بعد موتهما أم أنهما في غربةٍ مثلي، وديمة هناك حيث الغرباء مع ابني الذي لا أستطيع أنْ أقول (ابني الذي خرجتُ به مِن الدنيا) مثلما يقول سائر الآباء.

نصرة - حسب حكايات أبي الكثيرة عنها بعد موتها- شُجاعةٌ، في شبابها أقوى مِن كثيرٍ مِن الرجال، تغلبَتْ على أبيها الشيخ محمد الشافعي الجَسور الذي لم يتغلبْ عليه أحدٌ، الشيخ محمد الشافعي أحيانًا يَظهَر طمعُه، وأحيانًا يغيب في حلقات الذكر والصلاة، ونصرة لا تترك له الفرصة للزواج بأخرى غير أمها التي أنهكها المرض، حاول الزواج كثيرًا ولكنَّ نصرة ابنته وقفتْ له بالمرصاد، تُراقِبه في الغيط وفي البيت وفي الشوارع وفي المسجد وفي حلقات الذِّكر، تُراقِب طعامه وتُراقب النساء اللاتي يعملنَ لديه في الغيط، تُراقب الطامِع والطامِعة في أبيها وتهشُّ عنه وعن أرضهم، أختها بهية طيِّبةٌ أصغر مِنها وأقلُّ جمالاً، وليستْ لها شخصيةً تمامًا مثل أُمِّهما، بهية رقيقةٌ رومانسيّةٌ ولا تريد أكثرَ مِن لمسةٍ مِن شابٍّ جريءٍ نظيفٍ على ظهر كَفِّها، لا تطمع في أكثرَ مِن حضنٍ لشابٍّ نظيفٍ تحت جميزة أبيها الضخمة في الصباح الباكر حيث يتواعد العُشاق مع آخر حضورٍ للقمر الهارب مِن برودة الصباح.

بهية ماتتْ صغيرةً قبل أنْ تتزوَّج، ونصرة أصبحتْ هي الولد والبنت والأم والأب لأبيها، أصبحتْ كلَّ شيءٍ، وكلَّ الناس، وحين سَرَق محمد بن

الهلالية القمح لم يستطعْ أحدٌ أنْ يخدعَه ويُعيد القمح غير نصرة، محمد بن الهلالية لا أبَ له وأمه سوداءُ كالفحم تعمل في الحقول بأُجرتِها وغالبًا بأكْلِها وأكْلِ ابنها، قويّةُ البُنية وطويلةٌ تَحرُث بعرقوبها الجافّ طوال اليوم في الأرض، تَجري هنا وتَرمَح هناك، تَحمِل الذُّرة وتُقَصِّصُ الحَبَّ بأصابعها التي تُشبِه منقار غرابٍ عجوزٍ، ابنها يخافُه الناس، لا لأنه الأقوى فقط، ولكنه الأقلُّ خوفًا على نفسه والأقلُّ خوفًا مِن الموت حسب ما يظهر.

ابن الهلالية «مِسْتَبْيِع» كما يقولون عنه جميعًا، ويؤكِّدون لأبنائهم الذين قد يغترُّون ويدخلون معه في شجارٍ أو خلافٍ دائمٍ، حمل ابن الهلالية زكيبة قمحٍ كبيرةٍ، أكثر مِن نصف أردبٍّ حملها على ظهره ومضى بها يعبُر الترِّع والمجاري، يخوض في الماء والوحل، خبَّأها في البُوص بجوار السوق حتى يبيعها في اليوم التالي حين يمتلئ، يبيعها ويأكل طعميةً ساخنةً ويشرب شايًا في خيمة التجار ويعود بجنيهاتٍ قليلةٍ يُباهي بها أبناء الشافعي الذين يَحرِمُهم آباؤهم مِن الملّيم لأنهم مازالوا في عِداد العيال.

أرسلتْ له نصرة سليمان الطفلَ الصغيرَ الذي لم يتجاوز الرابعة، يحمل رسالةَ غرامٍ واضحة الدهاءِ للطفل الصغير، واضحةً للجميع إلا ابن الهلالية الذي صدَّق نفسه وظنَّ أنَّ ابنة محمد الشافعي المُدلَّلة قد تُعجِبُها قوَّته أو تَهيم بسماره، غباؤه زاد عن حدِّ الشكِّ، لم يشكَّ أبدًا أو يربط بين توقيت رسالة نصرة الغرامية وتوقيت سرقة القمح، قابلها ابن الهلالية تحت الجميزة، حاول أنْ يقبِّلها زَجَرَتْه، وفي عجالةٍ أَمَرَتْه أنْ يذهب لأبيها ليطلب يدها، وقبل أنْ يفرَّ مِن الفرحة التي تُذيب العقل، قالت: «بس أبويا مينفعش يناسب حرامي، رجّع القمح الأول ورُح له.» رغبتُه العمياء وبَشَرَة نصرة البيضاء زادته غباءً، أعاد القمح إلى الجرن وحين عاد إلى الحاج محمد الشافعي ليلاً ليطلب يد نصرة التي ظنَّ أنها فاتها قطار الزواج لأنها تجاوزت الخامسة والعشرين، كان الشيخ محمد الشافعي على علمٍ بكلِّ ما فعلته ابنته وحشد إخوته وشباب العائلة وكادوا يَفتِكون به، وبعدها أخذ أمه ومضى بها مثلما حطَّتْ به وليدًا صغيرًا لا يعرف أحدٌ لها أو له أصلاً أو مَنشأً وكأنهما بقايا الليل وما يتساقط مِن ظلامه الرهيب الذي يلفُّ الحقول والزرائب.

obeikan.com

-٤-

ما بقي مِن ديمة (٢)

لم يبقَ مِن ديمة إلا بعضُ الذكريات الجميلة في قلبي وعقلي عن أجمل أنثى شاركتني سريري، وصورٌ أطالعها على الإيميل يوميًا لطفلٍ صغيرٍ ذهبتْ به مِن مصر وهو مختبئٌ في بطنها، ديمة خدعتني وهربتْ مِن العالم العربي كلِّه، كما كررتْ لي أكثر مِن مرةٍ، ذهبتْ إلى أمريكا ومعها ابني لا يزال جنينًا، ثم أصبح الآن شَرودًا صغيرًا، يهيم في بلاد الله دون أنْ يعرف شيئًا عن أبيه.

راسلتْني مِن هناك على الإيميل نفسِه الذي حدَّثتُها عليه كثيرًا قبل

obeikan.com

زواجنا، الإيميل نفسه الذي شهد بداية الحب بيننا وميلاده شهد ميلاد ابني الوحيد في أمريكا وشهد ميلاد العداوة بيني وبينها والشتائم مِنّي لها، وردودها القاسية التي حوَّلتْها لشتائم لي ولبلدي ولبلدها ولكلِّ العرب والمسلمين؛ قالتْ: «أنتم للأسف مجتمعاتٌ تكره الحياة وتكره نفسها ولا تستطيع أنْ تحبَّ شيئًا، مجتمعاتٌ لا تَقْدِر إلا على القتل والسفك ونزع الأظافر.»

كرَّرتُ لها أحيانًا بوُدٍّ وهدوءٍ أنّ مصر بخيرٍ والأمور فيها جيدةٌ ولكنها لم تقتنع، وأرسلتْ لي أكثر مِن مرةٍ روابطَ بالفيديوهات التي فيها قتلٌ ومظاهراتٌ وعنفٌ بين حشودٍ مختلفةٍ أو متظاهرين في الشوارع يقذفون بعضهم بالطوب ويكسِّرون السيارات وواجهات بعض المباني، وأرسلتْ لي مشاهد القبض على مسئولين سابقين تدلُّ على تقلُّب الأحوال وعدم استقرارها وأنَّ الصراع في أشدِّه وقد يأخذ مراحل أخطر في القادم، هكذا علَّقتْ بتعليقاتٍ مُقتضبةٍ على بعض الفيديوهات لتبرِّر لي رأيها وأنها على صوابٍ حين فضَّلت الهروب بابنها، وبذكرياتها الجميلة معي كما تدّعي وأكذِّبُها باستمرارٍ.

obeikan.com

ناقشتُها وقلتُ لها إنَّ هذه فترةٌ انتقاليةٌ ومرحلةٌ استثنائيةٌ والأمور ستكون أفضل، وليس كلَّ مَن يعيش في مصر يُقتَلون أو لا ينعُمون بالحبِّ والحياة الطبيعية مثلما هي الحال في سوريا كذلك، ولكنها أحيانًا تتجاهل الردَّ، وكأني لم أقلْ شيئًا، أو أتحدَّث في فراغٍ.

تعوَّدتُ أو بالأحرى أُجبِرتُ على أنْ أُرسِل لها مائتي دولارٍ شهريًا، لا أدري ما الذي أجبرني على هذا؟ هل شهامة أبي الذي لم يعرفْ أصلاً بقصّتي مع ديمة وابني الذي يحمل اسمه ولم يره مثلما لم أره أنا كذلك؟ أم أجبرني حبّي القديم لديمة الذي يَخفِتُ يومًا بعد الآخر ويتبدَّل كراهيةً وحقدًا عليها وعلى اليوم الذي رأيتُها فيه؟ والأرجح أني فعلتُ ذلك حين أردتُ أنْ أخدعَها وأرغِّبها في العودة وأثبتَ لها أنَّ الأمور عندي جيدةٌ والأحوال في مصر مستقرَّةٌ، وأني قادرٌ أنْ أُرسِل لها بشكلٍ مستمرٍّ كلَّ شهرٍ مائتي دولارٍ، ظننتُ أني أستطيع استعادتها والأمر لم يكن بهذه السهولة، فهي مع الأيام تتشرَّب ماء الغربة فتزداد قسوةً وصلابةً ويزداد كرهي لها ولنفسي وللساسة والسياسيين.

الأموال الكثيرة قد تُعيد ديمة، والأموال في بيْع الأرض، والأرض استولى عليها عبد الحميد المُقامِر الطامع، لو كان سليمان حيًا لأخذ لي حقي مِنه، أحتاج لبيع فدانٍ حتى أذهب لديمة وابني في أمريكا وربما تعودُ معي بإغراء المال، أحتاج لبيع نصف الأرض حتى أشتري بيتًا جميلاً أو فيلا في الشيخ زايد وأغريها بها حتى لا تهرب بابنها مرةً أخرى، أحتاج لبيع الأرض كلِّها لأهاجر إلى أمريكا وأعيش معهما هناك حياةً سعيدةً تغمرها نظافة الشوارع المغسولة بالثلج والمطر، وجمال السيارات القوية المتينة بدلاً مِن الرديئة التي أغرقتْ شوارع مصر وتتفكَّك على الطريق، حياةٌ في أمريكا ومعي ثمن أرضِ نصرة ستكون حياةً في الجنة، الفدان تخطَّى سعرُه الآن ربع المليون، وهذه اثنا عشر فدانًا، سيكون معي ثلاثة ملايين جنيهٍ أو ما يعادل نصف المليون دولارٍ تقريبًا. آه لو مات عمي عبد الحميد بين مَن يموتون كلَّ يومٍ مِن حولي مِمّن أحبُّ!

أمسِ عشتُ ليلةً حزينةً جدًا مثل أغلب لياليَّ الحزينة في استراحة المحارب التي أضحتْ مقبرةً، اتَّصلَ بي صديقي الثوريّ محمود نادي عضو شباب الثورة وانضمَّ لِما أسموه بعد حكم الإخوان بجبهة الإنقاذ

وعضو التيار الشعبيّ، ويظهر كثيرًا في الفضائيات، اتَّصلَ بي ليس ككلِّ مرةٍ ليستطلع رأيي أو يعرض عليَّ وجهة نظره في الأحداث الجارية ويناقشني فيها، وإنما اتَّصل باكيًا، وأخبرني بمقتل محمد الجندي لأني ليس لديَّ تليفزيون في الاستراحة ولا أتابع هناك الأحداث، وأخبرني وهو يبكي أنَّ الجندي صديقه اختُطِف وعُذِّب حتى الموت، وقصَّ عليَّ بعض مشاهد الودِّ والمحبة بينهما، وأنَّ آخر مرةٍ رآه فيها في ميدان التحرير اشترى له محمد الجندي بيتزا حين علم أنه لم يأكل شيئًا منذ الصباح.

امتلأ قلبي في هذه الليلة بالكآبة والحزن وأيقنتُ أنَّ مَن يموتون هم نصف أخيار الأرض حتى يُفجَع فيهم النصف الآخر، أمَّا الأشرار جميعًا فهم الذين يموتون دائمًا ميتةً طبيعيةً هانئةً سعيدةً على فراشهم.

أمريكا يراها أغلب الناس هنا الشيطان الأعظم الذي يدبِّر المكائد ويخطِّط لتدمير أعدائه في كلِّ العالم أو السيطرة عليهم، وفي أمريكا يموت الناس عادةً مِيتةً طبيعيةً، لا يقتلون بعضهم مِن أجل السياسة

والحُكم، ولا يموتون في القطارات وحوادث الطرق، حياتهم طبيعية دون أدنى مللٍ، أمريكا هي الجنة وديمة في الجنة هناك مع ابني الذي لم أره وأريد أنْ أموت حتى أراه في الجنة هناك، ولكنَّ الموت مازال يرفضني، هل تكون أمريكا وأوروبا بالفعل هي الجنة التي رأيتُها في القرآن الكريم وأنا أحفظه في كتاب الشيخ مجاهد؟ بدأتُ أقتنع بهذا.

هل صُرِف أبي بعد موته إلى الجنة في أمريكا وعاش بالقرب مِن ديمة وحفيده الصغير يرعاهما دون أنْ يخبرهما بقرابته؟!! أهل الجنة يعرفون كلَّ شيءٍ، وليس بينهم غفلٌ أو معمًّى، ويتمتعون بكلِّ الفراسة والذكاء. حكمتك يا الله يا مَن تصرف الأمور بحكمتك وعلمك الواسع! أحيانًا ينتابني الغيظ مِن الحاجَّة نصرة لأنها أصرَّتْ أنْ تجعلني مُشتتًا حين كتبت لي كلَّ أملاكها، فأظلّ دائمًا عيني على الهرب إلى ابني ولا أقدر على مواجهة عمي، هل تعمَّدتْ نصرة أنْ تضعني في مواجهةٍ معه لتثبت أني عاجزٌ عن مجابهته وأني ناقصُ الرجولة؟!! هل كانتْ تكرهني إلى هذا الحدّ؟!

أيامي في المحارب لا تقلُّ حزنًا عن أيامي خارجها، الوحدة هنا بين الأقارب والأهل والأرض والعزوة، والفقر في ملكي وموطني، كلّها معانٍ أشدُّ قسوةً مِنها خارج المحارب، الوحدة هنا ليست هي تلك التي عانيتُها هناك، والفقر في المحارب أشدّ ألمًا في البطن والعقل مِنه هناك في القاهرة أو الشمال عمومًا.

زوجتي الأولى اتَّصلتْ بي لتُخبِرني أنها أجَّرتْ شقتنا مفروشةً لأختها وزوجها وذهبت هي للسكن مع أبيها وأمها؛ لأنها بحاجةٍ لثمن الإيجار، لأني لم أذهب إليها منذ مدةٍ كبيرةٍ ولم أرسل لها أيَّ أموالٍ، وافقتُ على هذا التصرُّف دون تركيزٍ أو تفكيرٍ أو غضبٍ، فقط تعجَّبتُ مِن صبرها وعدم رغبتها في الطلاق، هل تحبُّني بالفعل وهل هي صادقةٌ في حبِّها إلى هذا الحدّ؟!! أم أنّ لها غايةً أخرى؟ وأنها تدرك أني أفضل فُرَصِها؟ لستُ أعلم.

أصبحتْ تتَّصل بي كثيرًا بالليل، وتتجرَّأ وتحدِّثني بوضوحٍ عن رغباتها الجنسية وتتكلم بألفاظٍ مكشوفةٍ، لم يُساوِرني شكٌّ أبدًا في أنها تتحايل

عليَّ بطريقةٍ فجَّةٍ حتى أعود إليها وأعاني منها البرود الذي لم أرَ له مثيلاً، نعم هي باردةٌ حدَّ الثلج، ولهذا أطمئنُّ لأنها ليستْ تلك التي تخون، ربما هذا هو السبب في أني لم أفكِّر في العودة إليها أو أحرص على طلاقها، لم أصدِّق مشاعرها أو رغباتها التي تخبرني بها في التليفون، لا أراها أكثرَ مِن مُمثلةٍ تؤدّي دورها ببرودٍ ولم تقنعني يومًا.

أحيانًا أقتنع تمامًا أنها أساسُ كلِّ مشاكلي؛ فلو كنتُ سعيدًا معها لَما احتجتُ للزواج مِن تلك التي هربتْ بابني ولم ألمسه بيدي ولو مرةً، هي تعيش بشكلٍ طبيعيٍّ في كلِّ الأحوال، بزوجٍ أو بغير زوجٍ، بأطفالٍ أو بغير أطفالٍ، في شقةٍ مُتَّسعةٍ بمفردها أو في حجرةٍ صغيرةٍ في بيت أبيها، معها كثيرٌ مِن المال أو قليلٌ مِنه، لا تفكِّر كثيرًا ولا تشغل نفسها كثيرًا بالناس مِن حولها، لا تنشغل بالسياسة وتكره حديثي فيها كما تكرهني حين أتحدَّث عن أيِّ شيءٍ خارج الشقة ولو كان أكوام الزبالة التي يُلقيها الجيران على السلم وأمام الشقق، دائمًا تنصحني بأنْ أكون كبير العقل ولا أنشغل بهذه الأمور، ولكني لم أستفد مِن نصيحتها أبدًا، وليتني استطعت!

مِن مدّةٍ أتنقَّلُ بين المحارب والعمرانية بشوارعها المتكسِّرة وأكوام الزبالة التي تتكاثر بين الليل والنهار، مَدخل المحارب - الذي هو طريق الجِمال القديم - تراكمتْ فيه الزبالة كذلك بما لا يقلُّ عن العمرانية، المتروك مِن الطريق بعد الزبالة تكاد تنحشر فيه السيارة، جَمَلان كبيران مُحمَّلان اتَّسع لهما الطريق في الماضي وتظلُّ بين الجَمَليْن مسافةٌ يقفز فيها الشَّرود الأبيض الصغير ويتشاجر مع صغار الماعز التي يمقُتُها مِن كلِّ قلبه ويتعالى عليها، لأنَّ لونه أبيض وهي غارقةٌ في السواد، وقليلٌ مِنها التي تنعُم ببقعةٍ بيضاءَ في ذيلها أو في أسفل البطن لا يمكن رؤيتها.

في كثيرٍ مِن المدن وأطراف القاهرة انتشرت الأغنام التي تَرعى الزبالة وتمحو مِن ذهني صورة الأغنام القديمة التي تمنيْتُ أنْ أكون قريبًا مِنها وحَالَ بيني وبينها حبُّ الدراسة ورغبة أبي في ألَّا أكون تابعًا للخِراف فتنسدَّ رئتيَّ بالأتربة التي تُثيرها وراءها، هكذا قال لي حين اقترحتُ عليه أنْ يشترى بعض الأغنام وأقوم على رعايتها والخروج بها إلى الرعي.

تشابهتِ المُحارب مع العمرانية وأطراف القاهرة في أشياءَ كثيرةٍ غير أكوام الزبالة، فالإنترنت والاتصالات لا تقلُّ جودتها وكفاءتها في المحارب النائية عن القاهرة، أحيانًا يكون التحميل مِن الإنترنت أكثر سرعةً في المحارب، وتصبح الدردشة مع ديمة الهاربة أسرعَ وبلا تقطيعٍ، وصورة ابني في الفيديو كول أكثر وضوحًا.

كميل ساعدني لإدخال الانترنت ويدفع الاشتراك حين أكون في القاهرة، دائمُ الاتصال بي ويطمئنني باستمرارٍ على حمد وحسن ومحيمد وأسمى دون أنْ أسأله، ويخبرني أنّه رأى أسمى عند الجزَّار يوم الجمعة وسلّم عليها، وسألتْه عني وطمأنها، حسن يتَّصل بي أحيانًا وأكثر الوقت ينسى أو يتعمَّد الردَّ على تجاهُلي لهم، اتَّصل بي حسن آخر مرةٍ حين مات صديقه وزميله في الدراسة وفُجِع به، صديقه مات وهو يعمل في القاهرة في السيدة عائشة، صعقته كهرباء صاروخِ تقطيع الرخام، جاء حسن مع الناس إلى القاهرة حين علموا بالخبر فاتَّصل بي وهو يبكي ويطلب مني أنْ أذهب معه بالسيارة إلى المحارب، ولم يكنْ يتوقَّع أنْ أشاركه البكاء على صديقه الذي لم أره كثيرًا وأنسى دائمًا اسمه وأخلط

obeikan.com

بينه وبين اسم أبيه.

حسن يظنني مِمّن لا يبالون بالناس مِن حولهم ولا يعبأ إلا باحتياجاته وطموحه الشخصيّ فقط، وأنا لم أحاول أنْ أثبت له أنَّ نظرته خاطئةٌ، حدَّثني حسن عن جمعة صديقِه المكفَّن في السيارة التي أمامنا طول الطريق مِن القاهرة إلى المحارب، أخبرني أنَّه تزوَّج منذ أشهرٍ قليلةٍ وأنَّ أهله عرفوا مِن أيامٍ قليلةٍ أنَّ زوجته حاملٌ، فلعلَّ هذا يهوِّن عليهم قليلاً، وأنَّه رحمة الله عليه كان بارًّا بوالديه وأخيه الصغير، فوجِئتُ أنَّ حسن يشبهني في بعض الأشياء وأنه ورث عن أبي نصيبًا لا بأس به من الوفاء والإخلاص والتعاطف.

دخلنا المحارب مِن طريق الجِمال المُزدحم بالرِّجال في مشهدٍ مهيبٍ، اصطفَّت فيه النساء بعد الرجال على جانبي الطريق وهنَّ يصرخنَ صراخًا مُرًّا صادقًا، ويغرقنَ في عَديدٍ وبكاءٍ يقشعرُّ له البدن، ذهبنا للصلاة عليه في المسجد المُلاصق للمقابر وبكى عليه أصدقاؤه مِن الشباب وودَّعوه، وبكيتُ معهم على أبي وعلى الحاجَّة نُصرة وعلى

جمعة الشهيد الذي خرج للعمل وطلب الرزق له ولأهله، عيناي ازدحمتا بالدموع التي حجبتْ بعض الرؤية للمقابر، وكدْتُ أتعثَّر لولا الشَّرود الأبيض اللامع الذي يقفز فوق المقابر ولا أتبيَّن هل يقفز فرحًا أم غضبًا، أنار الشَّرود الأبيض بلمعانه الصورة أمامي وجعلني قادرًا على الرؤية وتمنيَّتُ حينها لو استطعتُ أنْ أُمسِك به وأذبحه وأطعم به المُتعبين مِن السفر والغرباء الذين جاءوا مِن القرى المجاورة للعزاء.

انتهت امتحانات آخر العام وفضَّلتُ البقاء في المحارب حتى لا تعصف بي دوَّامات الحيرة، ولا أعرف إلى أين أذهب أو أين أقضي الوقت، وسيطرتْ عليَّ حالةٌ مِن الحزن والاكتئاب بعد جنازة جمعة الذي غدر به الموت مثلما يفعل دائمًا مع الطيِّبين.

اليوتيوب هو العلاج السريع للاكتئاب، أتخوَّف مِن ألمِ الاكتئاب ولا أرفض توابعه المعروفة مِن أمراضٍ أو جلطاتٍ، أريد تَبِعاتِه حتى يسلِّمني للموت ولكني لا أتحمَّل ألمه، فأجدني لا إراديا أذهب إلى اليوتيوب وأبحث فيه عن مادَّتي التي أعرفها جيدًا، غالبًا لا يخرُج استخدامي

لليوتيوب عن أغاني وحفلات ثلاثيّ الطرب وبعض المسلسلات القديمة والبرامج الإذاعية القديمة كذلك؛ ثلاثيّ الطرب والمرح والإقدام على الحياة، محمد منير وفيروز وأبو عبعاب، حتى لو الأغنية التي يغنِّيها أحدُ هذا الثلاثي حزينةٌ ستؤثِّر التأثير الإيجابيّ نفسه وتخرِجُني مِن حزني واكتئابي.

ثلاثيٌّ غريبٌ لا أعرف بدقّةٍ سرَّ تكوُّنه بداخلي واستقراري عليه بهذا الشكل مِن مطربٍ مصريٍّ ومطربٍ بدويٍّ ومطربةٍ عربيةٍ شاميةٍ، محمد منير لا يحتاج إلى تفسير لحبي له، وفيروز أحببتُها لحُبِّ كميل لها، ولأنها مسيحيةٌ مثله، وأبو عبعاب بدويٌّ مثل أبي، وأبي أَحَبَّه كثيرًا وحفظ مواويله ومجروداته وأشاد بقيمته الواعظة كثيرًا.

إذا اجتمعتِ الوحدة والاكتئاب عليَّ تخلَّصتُ مِنهما بتشغيل تسجيلات ألف ليلة وليلة الممثَّلة إذاعيًا، حلقات ألف ليلة وليلة وموسيقاها تبثُّ الحيوية في المكان، وتجعل الاستراحة تصخب بالحركة والحوار والصراع والحبّ والموت والتسلية واللقاء بعد فراقٍ والفوز بعد حرمانٍ، أشغِّل

opelikan.com

الصوت وأتركه، وأتحرَّك وأعدّ الشاي وأحيانًا أجهِّز سندوتشًا وحيدًا أحاوره ثم أفجعه بالانتهاء والفناء على مهلٍ.

كدتُ أحفظ أغلب حكايات ألف ليلة وليلة لإعادتها، وبدأتُ أميِّز مواضع الضعف ومواضع القوّة في الصياغة الجديدة التي أعدَّها الشاعر المرحوم طاهر أبو فاشا، راجعتُ معظم البرامج الإذاعية المعروفة والذائعة في الثلاثين عامًا الأخيرة، برنامج «قال الفيلسوف» الذي تجذبني مقدِّمته بشدّةٍ، وتُعجِبني طريقة أداء سميرة عبد العزيز للكلمات ومدِّها للحروف، وأثر المدّ والتنغيم في جذْب المُتلقّي، بدأتُ أفتِّتُ هذه المأثورات مع تفتيت كتلة الوحدة الصلبة التي تلفُّني في أوقات تأخُّر كميل أو انشغاله ببعض الأمور الخاصّة بأرضه أو عمله أو أهله، وأمّه التي لا تكفُّ عن مطالبته بأنْ يكون مثل أبيه ذكيًا ومجتهدًا في جمع المال وهو لا يملُّ مِن تكرار أنه لا يريد أنْ يزيد مال أبيه قبل أنْ يعرف فيما يصرف هذا المال.

كميل مثلي يريد أنْ يُهاجِر ويَتوه في هذا العالم حيث لا يعرفه أحدٌ

أو يعرف أحدًا، ويكوِّن عالَمًا جديدًا في مكانٍ آخر أكثر نظافةً وأكثر هدوءًا وأليق بموسيقى محمد منير وفيروز وإليسا وأغاني الشتاء وفحيح الريح وصوت اصطدام السحاب برؤوس الجبال. أخبرَني كثيرًا عن أحلامه هذه، حين سألتُه عن سرِّ عزوفه عن الزواج حتى قارب الأربعين، حدَّثني بحُرقةٍ عن الكُره الذي يلمسه في قلوب الجيران وبعض المنافقين، وبقية أهله الذين يردُّون الكُره بالكُره.

دائمًا يُطيل كميل في وصْف ألمه وصدمته وهو شابٌّ صغيرٌ حين عادتْ إليهم أخته جورجينا مِن الغيط وملابسها غارقةٌ في دِماء عُذريَّتها التي أهدرها جارهم في الغيط، جورجينا بريئةٌ وجميلةٌ، وشابٌّ مراهقٌ في حَرِّ الصيف وظلام غيطان الذُّرة لا يعرف الرحمة، يتكلَّم كميل كثيرًا بحرقةٍ عن الآثار النفسية التي تركها هذا الحَدَث في نفسية أخته الوحيدة التي تترصَّدها العيون في كلِّ مكانٍ، على الكوبري وهي ذاهبةٌ إلى دروسها في المركز أو في سيّارة النقل وهي ذاهبةٌ إلى المدرسة إنْ لمْ يستطعْ الاستيقاظ مبكِّرًا ليُوصِلها بسيارته.

ألمُه وألمُها في رفْض أمّه أنْ يشترى لأخته سيارة ولو فيات ١٢٨ لتذهب وتجيء بها، أمّه تُخوِّفه مِن عيون الناس الناهِشة والحاسدة ومِن معاكساتهم ومِن الحوادث ومِن أعمامه الذين يخشون ضحك الناس عليهم إذا وافقوا على أنْ تقود فتاةٌ في الثانوية العامة سيارةً بمفردها.

بجبنٍ وبخوفٍ كبيريْن أهرُبُ مِن التفكير في مشكلة جورجينا وأعبائها على كميل الذي يريد أنْ يترُكني ويهرب مثل ديمة، أهربُ ناحية اليوتيوب وطرائفه الفنية التي يزدحم بها، أحيانًا أستمع لنكتٍ أو لتسجيلاتِ المونولجيستات المصريين القديمة أمثال سيد الملاح ومحمود سلطان ومقاطع التقليد.

أتذكَّر أني لم أفتح الياهو ميل منذ أكثر مِن أسبوعٍ، أحيانًا أتكاسل وأحيانًا أخرى لا أرغب في الحديث مع ديمة يأسًا مِن أنْ يتغيَّر شيءٌ في موقفها، فتحتُ الماسنجر ووجدتها تركتْ رسالةً أوف لاين تقول فيها: ماتت عمتي يا حميد ومحلّ الحلويات الذي تملِكُه عليه ديونٌ كثيرةٌ ولا أدري كيف ستكون حياتي في أمريكا، وأشعر أنَّ القادم أصعبُ بكثيرٍ،

عمّتي لم تكن تُطلِعُني على أيٍّ مِن أمور العمل، وكانت تنزل إلى العمل باستمرارٍ برغم مرضها، لا أظنُّ أنَّ بإمكاني أنْ أجلس مكانها وأدير الأمور بكفاءةٍ، والمحلّ يساوي حياتي في أمريكا، ولا أعرف هل مِن الأفضل بيعه أم استمراره؟

لا أريد الردَّ على رسالتها، ولا أعرف لماذا تخبرني أو تستشيرني؟ ولكن، أشعر بالأمل في اضطرابها هناك ومواجهاتها لصعوباتٍ في حياتها بأنْ يكون في ذلك مَهْرَبُها، هل يعني هذا أنَّ الفرصة سانحةٌ لأخبرها بأني سآخذُ الأرض مِن عمي وأني سأشتري لها بيتًا جميلاً في منطقةٍ راقيةٍ، أو حتى أغريها بأنْ نذهب إلى إحدى الدول العربية المستقرّة مثل الإمارات؟ بعض أهلها في الإمارات هاربون مِن الحرب في سوريا، وربَّما هذا يشجِّعُها فتتغلَّب رغبتها في لمِّ الشمل؟ ما زلتُ لا أعرف ماذا أقول لها أو بأيِّ شيءٍ أردُّ عليها.

أريدُها أمامي حتى أستطيع محادثتها، ملَلْتُ مِن تواصُلِنا عبر العالم الافتراضيّ وأتشوَّق لأنْ أضع يدي على كتفها، لأنْ آخذها في حضني

وألمس خدَّها أو حتى أقرصها فيه أو في أيِّ جزءٍ مِن جسدها، أتشوَّق لِلَطْمِها على خدِّها وصفعها، أحتاج لأنْ أضربها ضربةً قويةً تبرد النار الملتهبة في قلبي عليها وعلى ابني، أحتاج لأنْ أعذِّبها أو أشوِّهها قليلاً ملامحها ثم أعالجها بيدي على مهلٍ.

لم أستطعْ أنْ أكتب لها ردًا برغم تيقُّني مِن أنها الفرصة الأفضل، وأنَّ حالتها هناك سيئةٌ، ربَّما طَمِعْتُ في أنْ تسوء حالتها أكثر، وحينها تكون الفرصة في استعادتها والحديث معها أفضل، تحت غطاء النوم أظلُّ متيقظًا لوقتٍ طويلٍ، ربَّما ساعةً أو ساعاتٍ في الظلام تحت الغطاء، حالٌ تُشبِه حال الميت في القبر، أفكِّر فيها، في كلِّ شيءٍ وكلِّ ما مرَّ بي في اليوم ثم في العمر كلِّه.

تحت غطاء النوم كثيفٌ الظلام حيثُ لا أقدر على رؤية يدي، أتحوَّل إلى شبحٍ، إلى روحٍ تبحث عن بقية الأرواح؛ عن أبي وعن عمتي نصرة التي أسمِّيها جدةً لأنها تكبر أبي بعشرين عامًا، وأبي عوَّدني أنْ أقول جدَّتي، أبحثُ عن ديمة وأبحثُ عن ابني داخل أحشائها، وعن محمد الجندي

لأسأله كيف يرانا ويرى مصر بعد موته، وأبحث عن مهجة لتُضحِكَني ثم أبحث عن عمّي عبد الحميد وبيدي خنجرٌ أريد أنْ أغرسه في قلبه، وقلب أبنائه وأحفاده، بل سأغرسه في عينه المُسمَّمة الخالية مِن أيِّ مظاهرِ مودةِ القرابة أو العطف بحُكم السِّن.

أنام بعدها وعيناي ممتلئتان برملِ الحُزن الساخن، فأقوم في الصباح وأنا غير قادرٍ على فتحهما، في الصباح قلبي مغلقٌ مثل عينيّ على أحزانهما وعلى هواء الصباح الرطب الجميل في المحارب حيث لا يفكِّر الفلاحون في رشِّ الزرع أبدًا خوفًا مِن أنْ يذهب الندى بتلوِّثهم سدًى، أحيانًا أستيقظ مبكِّرًا على صوت الشردان والأغنام التي تخرج للرعي مبكرًا لتعود إلى البيوت مبكرًا قبل أنْ تشتدَّ حرارة الصيف، فالضأن أكثر الحيوانات التي تتضرَّر بالحَرِّ ولا تتحمَّل سخونة الشمس، لأنَّ أصوافها تكتم الحرارة وتقتلها سريعًا.

أستيقظ حين يمرُّ قطيعٌ كبيرٌ أمام الاستراحة فأسمع جلبة الرعاة والتابعين فأتابعهم وأتابع الشردان وأسأل الأبيض الصغير الرحمة بي،

فيخبرني بحلٍّ لهذا الذي وصلتُ إليه، بخلاف ما أخبرني به في طفولتي وما أمَّلني به مِن الخير والاستقرار والاستمتاع بأحاديث أبي سليمان وحِجر نصرة وحضنها، الشَّرود الأبيض هو هو، لم يتغيَّر فيه أيُّ شيءٍ، مازال على غروره وصَلَفه ونشاطه المستمرّ وتعاليه على القطيع، ولا يُعير أحدًا اهتمامًا، حتى أمّه لا يلجأ لها إلا حين الرضاعة ويأتيها خاطفًا سارقًا لا يعرف الرحمة بضرعها.

openikan.com

-٥-

بين الاستراحة ومقابر الجنوب

في المحارب وضعتُ صورة أبي على الحائط فوق سرير النوم، وتلك مشكلةُ بعض الزوار الخاصّين، ثم مشكلتي أنا؛ فحين رجعتُ شعرتُ بحاجتي للمجازفات القديمة وألعابي الصبيانية الخاصَّة، فاتصلتُ بمهجة بنت نعيمة التي ورثت عن أمها عشقي يوم كانتْ تخلو بي فوق سطح ديوان الحاجّة نصرة، مهجة جميلةٌ جدًا وفقيرةٌ جدًا وتزوَّجَها عثمان الأعرج ابن حسن الخفير، وتكاد تهجُره أغلبَ أيامها، وتعذِّبه بنار البُعد وتُريح نفسها، كما تقول لي مرارًا. سجَّلتُ رقمها في التليفون باسم

obeikan.com

(ماهر) حتى لا يشكَّ أحدٌ، جاءتني لاهثةً وأول ما رأتني ضحكتْ وقالتْ:

- أنا كنت مش هاجي بس قلبي مطاوعنيش.

ردَدْتُ عليها بابتسامةٍ أعرف أنَّها تُحبُّها. أكملتْ:

- طول عمرك يا أستاذ حميد مدلّع تجري بعيد والناس كلها تجري وراك، ما تقعد هنا وتريَّح نفسك وتريح الناس معاك.

- أنتِ كدَّابة يا مهجة محدش بيجري ورايا هنا غيرك.

اضطربتْ وبَهْتَتْ ضحكتها القديمة وسألتْ:

- ودا حلو يا أستاذ حميد والّا وِحِش؟

حاولتُ أنْ أثبتَ حالها على المرح الذي جاءتني به وأنزع عنها الكآبة التي قد ترتديها عندي، فمِلْتُ ناحيتها وقبَّلتُها قبلةً هادئةً في رقبتها:

- بصراحةٍ؟ أحلى حاجة يا مهجة، حلو طبعًا، هو فيه أحلى من كدا؟

وانهَلْتُ عليها تقبيلاً وكأني أخطو بالقُبُلات خطواتي العائدة المُتعطِّشة للمحارب ولوجه أبي وملامحه الحكيمة.

obeikan.com

نظرتْ إلى الصورة المُعلَّقة على الحائط فوق السرير وقالتْ لي:

- أنا مكسوفة من صورة أبوك يا أستاذ حميد.

ابتعدتُ عنها وقلتُ لها بإصرارٍ وحقدٍ:

- دي صورة يا مهجة، ورق، أبويا خلاص انتهى، أكله الدود.

وأجهشتُ في بكاءٍ مُرٍّ حتى ارتفع صوتي كثيرًا، فمالتْ ناحيتي بحِرْفَةٍ وقالت:

- خلاص، يخرب بيتك أنت هتفضحنا بالعياط بدل ما أفضحك أنا بالغنج والضحك والسهوكة؟ دا أنا كاتمة صوتي وبكتمه زي كل مرة عشان محدش يسمعنا وأنت هتفضحنا بالعياط، طب يلا بقى خليني أنا اللي أفضحك بالصريخ.

أضحكتني، وكأني لم أكن أتوقَّع كلَّ هذا الذكاء، يبدو أنَّ الرغبة والحب يفجِّران في المرء طاقاتٍ لم يكن يتوقَّعها.

بعد أنْ انتهيتُ وتمدَّدتُ جانبها على السرير لم يكن يدور في خَلَدي

obeikan.com

لا أبي ولا أَسْمَى ولا الحاجَّة نصرة أو أيًّا مِن أهل المحارب الذين قد يقتحمون المكان إنْ شكَّوا أنَّ مهجة معي، لم يكن يدور في خَلَدي غير الموت وغير الجنة وأبوابها الذهبية كما تخيَّلتُها في كُتّاب الشيخ مجاهد وأنا أحفظ القرآن، نعم الجنة وأشجارها التي لا تأتي الأبصار بآخر امتدادٍ لفروعها وأوراقها، أشجارٌ وارفةٌ بالحُب والرحمة والفاكهة والظل.

فاجأتني مهجة وهي تقول:

- خليني معاك هنا يا أستاذ حميد، أنظِّف لك الاستراحة وأطبخ لك، أنا عارفة أنك بقيت بيه كبير دلوقت ومحدش يقدر يظنّ بيك حاجة وحشة لو قعدت معاك أو يتكلم عنك بكلمة. والبهوات لازم يبقى عندهم شغّالة، خليني أنا الشغّالة بتاعتك، أنا بشوف في المسلسلات كدا.

ضحكتُ فضحكتْ وسألتْ مرةً أخرى بإلحاحٍ:

- ها، هتخيلّني معاك صح؟ على الأقل أضحكَّك، دا أنت تلاقيك مش بتضحك ألا لمّا أكون معاك.

أصرَّتْ مهجة على إعداد الغداء لي، بطاطس باللحمة كما قالت، وملوخية

openkan.com

خضراء في عزّ موسمها في منتصف الصيف؛ أول يوليو، حيث يهجم علينا الصيف بحَرِّه قبل مدن الشمال التي لا تنعم بسخونة المحارب وقلّة رطوبتها لارتفاعها على تلَّةٍ قديمةٍ بين بحر يوسف والترعة الجديدة.

انصرفتْ مهجة لتأتيني بأشياء الغداء وبينما أفكِّر في الاتصال بكميل دخلتْ أَسْمَى وملامحها الجميلة المعكَّرة بالغضب تسبِقها، دخلتْ شاتمةً:

- أيه اللي جاب العاهرة دي عندك يا حميد؟

- ازيك يا أمي؟

- متقولش أمي! ما تقول يا أَسْمِى باسمي زي ما كنت بتقول لنصرة يا نصرة باسمها؟ والّا أنا أكبر مِن نصرة؟!!! طب أهو نصرة ماتت وأنا لسة عايشة وصغيرة، والا أنت بتدلع اللي على هواك بس؟

جلستْ على كرسي المكتب مُمَدِّدةً رجليها في مُباهاةٍ بصحَّتها وخدودها الحمراء، ودخلتُ أنا للحمام أستحمّ وهي مازالت تتحدَّث بصوتها المرتفع المُجلجِل في المكان، أَسْمَى حريصةٌ دائمًا على صوتها

obeikan.com

المرتفع مهما نبَّهتُها وأكَّدتُ أني لا أحبُّ الكلام مع مرتَفِع الصوت، هي تفعل باستمرارٍ خلاف ما أريد، أحيانًا تبحث عمّا أحبُّ لتفعل خلافه.

- أنتَ مجتش تسلم عليَّ ليه أول ما جيت؟ والا أنت ملكش أم وأخوات؟ نسيت خلاص أنّ أمك لسة عايشة والا فاكرني مت؟

لم أردَّ عليها وشعرتُ كما لو أنها تُعايرني بالموت وتضغط على كلمة موت في كلِّ مرةٍ، وتكرِّرُها بغير داعٍ، تُعايرني بموت مَن أُحبُّ وتُعاقبني على بُعدي عنها، تعاقبني بالجفوة التي لا تعنيني ولا تشغلني أصلاً، خرجتُ سريعًا مِن الحَمّام ولبستُ جلبابي الأبيض الوحيد الذي ألبسه في المحارب دائمًا وخرجتُ ناحيتها، بدأتْ تهدأ أسمى مع الوقت وأخذتْ تسترسل في المشاكل بين أخوتي وخلافهم على البيت والأرض، وأنا أسمع ثلث ما تقول أو أقلّ.

- أخواتك يا حميد فضحونا في البلد، وغيرهم أبوهم مسابش لهم ربع قيراط ملك ومختلفوش ولا مسكوا في خناق بعض زيهم، لازم تقعد معاهم يا حميد أنت المسئول عنهم أنت دلوقت أبوهم.

opelkan.com

استفزَّتني الجملة الأخيرة جدًا، فردَدْتُ بغضبٍ:

- أنا مش أبوهم، أبويا وأبوهم مات، علِّمنا كلنا كلّ حاجة حلوة، وهم اللي نسوا كل حاجة ومفضلش فيهم غير الشر اللي مش عارف مين غرسه؟!!

انتفضتْ أَسْمَى مِن مكانها كَمَن سيدخل في مصارعةٍ مع أسدٍ:

- قصدك أيه؟ أنا اللي علِّمتهم الطمع؟ أنا الوحشة بنت الكلب وأبوك الملاك الطاهر اللي مفيش زيه في الدنيا؟

فرحتُ بغضبها لأنَّ هذا سيجعلها تمضي وتتركني بآلامي دون أنْ تزيدها، فأنا لستُ بحاجةٍ لأنْ أزيد عليها شيئًا.

- عمومًا أنا غلطانة أني جيت لك من الأول، أنا عارفة أنّ معدش فيك رجا، ولا فيهم، كلكم شفايعة والشفايعة طول عمرهم عايشين لنفسهم وبس. أبوك كان كدا، ثلاثين سنة معايا، وهو عايش لنفسه ولأهله.

شعرتُ بضرورة إيقافها عن الاسترسال حتى لا تزيد عداوتي لها، ولكني فضَّلتُ الهروب، صمتتْ قليلاً، فشعرتُ بضرورة معاملتها بذكاءٍ، وتذكَّرتُ

openkan.com

فجأةً أنَّ الجنة تحت أقدام الأمهات.

- يا أمي، أنا بحبك وأنت عارفة، أنا بس تعبان ومشاكلي مش قليلة علشان تزوِّديها، ربنا عالم بمشاكلي واللي أنا فيه، جيت هنا عشان أرتاح شوية وأهدى. عندي مشاكل في الشغل ومشاكل في حياتي، ومشاكل البلد كلها اللي تحيّر الجن، أنت مالك ومال البلد! وبعدين مشاكل أيه اللي البلد فيها؟ هنا اللي بيباتوا فيه بيصحوا عليه، وطول عمرهم كدا، قصدي مصر يا أمي مش المحارب، البلد غرقانة في المشاكل والهم، وحياتي كلها مشاكل، مفيش داعي أحكي لك وأصدّع راسك.

- أنتَ مالك ومال السياسة؟ أنت مش هتبطّل تبقى زي أبوك، شغّال نصايح لغيرك وسايب نفسك وبيتك! هو كان دايمًا كدا.

- خلاص يا أسمى مفيش داعي، تشربي شاي؟

فرحتْ بأنْ قلتُ لها يا أسمى باسمِها، وابتسمتْ ونسيتْ تمامًا كلَّ أحقادها على أبي الذي ينحاز لأهله على حسابها دائمًا، وذابتْ جبالُ الحسرة في قلبها وتبدَّلتْ ملامحها إلى الصفاء وإنْ ظلّتْ عيناها غير

openkan.com

مطمئنةٍ على الأقل بالنسبة لي.

- أنتَ حالتك المادية وحشة ليه؟ هو شغلك مش فيه فلوس حلوة؟ أنا أعرف أن اللي زيكم مرتباتهم حلوة؟ ومش بتاخد من عمك عبد الحميد فلوس الأرض ليه؟ هو أنت هتفضل طول عمرك خايب سايب له أرضك يبرطع فيها هو وأولاده وهو زي العبد ميعرفش جميل؟ اللي زيك المفروض يكون عايش أحسن عيشة، عندك أرض أكتر من أي واحد في البلد وكمان وظيفة كبيرة.

عرفتُ أنَّ ابتسامتها وصفاءها المُريبيْن سيكونان مقدمةً لهذا النوع مِن الأسئلة التي تصرُّ على أنْ تكشف بها كلَّ مخبوءٍ في حياتي، هذه عادة أسمى، تُقحِم نفسها في كلِّ شيءٍ وعلى كلِّ شيءٍ، وتعاندني أنا تحديدًا برفضها لأسلوبي الانطوائيّ، تظنَّ أنها ستربِّيني مِن جديدٍ وأنها ستغيِّرني وتصلح ما أَفْسَده أبي مِن حبي للقراءة والعزلة، لم أتجاوبْ معها وبدأتُ في اللعب في الموبايل وكأنها غير موجودةٍ.

- طب هتيجي تتغدى معانا؟

- إنْ شاء الله هاجي يا أمي، هاجي يا أسمى، إن شاء الله.

تركتني أسمى واتَّصلتُ بكميل حتى أقضي معه بقية اليوم، أخبرني أنه يعرف أني موجودٌ في البلد، وهو في طريقه إليَّ بالفعل، وأنه كان على وشك الاتصال بي ليخبرني بأنه قادمٌ، وليتأكَّد أني صحوت مِن النوم، لأنه يعرف أني حين أنام في المحارب غالبًا ما أستيقظ مع الظهر.

بعد قليلٍ جاء كميل وخلفه أخته الصغيرة جورجينا أجمل فتيات المحارب، تحمل سبتًا، أخذتُ كميل بالأحضان ووجهي لجورجينا التي ابتسمتْ بوُدٍّ وبخجلٍ، تابعتُ لهفة كميل وعيني على الأشياء التي أخذت جورجينا في إفراغها، مِن السبت في الثلاجة القديمة وأَرْفُف المطبخ المكشوف تمامًا على الصالة التي فيها المكتب وأجلس فيها وأصبحتْ حجرة جلوسٍ وضيوفٍ بالحتميّة، لأنها الوحيدة مع حجرة النوم والحمّام الصغير الذي أمقته؛ لأنه يشبه القبر، وأنا أحب دائمًا الحمّام المتَّسع.

- جورجينا مصرّة تطبخ لك علشان لمّا تروح الكلية عندك تعترف قدام الطلبة في المحاضرة أنك تعرفها، وأنك كَلْت مِن أيديها.

pelikan.com

ضحكتْ جورجينا ولم تنبسّ، وأكمل كميل:

- عايزة تدخل قسم علم نفس في الآداب، وأنا بقولّها ادخلي إنجليزي أو فرنساوي عشان تتجوزي على طول.

- جورجينا مش محتاجة لكلّ ده، أحسن حد يتمناها.

- الله يخليك يا دكتور حميد، أنت اللي دايمًا بتحسسني بالثقة في نفسي، مش صاحبك!!!

- أنتي مش محتاجة حد يخليكي تثقي بنفسك يا جورجينا، أنت بس شوفي قدراتك وجمالك وعقلك وأنتي تكوني أكثر واحدة في الدنيا واثقة في نفسها. لمّا أنتِ مش واثقة في نفسك، غيرك يبقى أيه؟

استأذنتُ مِن كميل وخرجتُ مُسرِعًا ووقفتُ أمام الاستراحة لأتَّصل بمهجة قبل أنْ تشترى شيئًا وتعيد لي المائة جنيهٍ الوحيدة التي معي، ولا أَمَلَ في أيِّ أموالٍ غيرها قد تأتيني قبل نهاية الشهر، ضاقتْ بي الحال كثيرًا بعد أنْ حرصتُ على تحويل مائتي دولارٍ لديمة كلَّ شهرٍ، وأفكِّر في أنْ أذهب لعمي عبد الحميد وأخبره بأني سآخذ نصف إيجار الأرض

obeikan.com

وأترك له النصف.

أكلتُ مع كميل أكلاً لذيذًا أبدعتْ فيه جورجينا وأخرجتْ كلَّ طاقتها وخبراتها، وشربنا شايًا بالنعناع أصرَّ كميل على إعداده كالعادة، مُتَّهِمًا إيايَ بعدم القدرة على ضبط الشاي لأني لستُ مِن هواة شرب الشاي، وأنَّ مَن لا يحبُّ الشاي لا يُجيد عمله، يقول كميل هذه الجملة دائمًا ليبرِّر إعداده هو للشاي، ويذكِّرني بالحكايات التي كنتُ أحكيها له عن الشاي في المدينة الجامعية والشجار على مَن سيُعِده.

تشبَّعتُ مِن الصلاة بمفردي في الاستراحة وقررتُ أنْ أخرج للصلاة في المسجد حتى أرى الأماكن التي تَعْرِفُ أبي جيدًا، أفتِّش عنه في الطريق إلى المسجد وفي المقابر المجاورة له وفي زوايا المسجد الذي يحفظ ملامح أبي جيدًا، التقيتُ بعض الأصدقاء القدامى مِن زملاء الدراسة في مدرسة المحارب والتقيتُ شعبان صديقي المقرَّبَ المُمتِعَ قديمًا، المُصِرَّ الآن على الحديث في السياسة برغم استشعاره رغبتي في الابتعاد عنها ومحاولتي جَرَّه إلى أحاديثنا القديمة المُمتعة عن الحب والمُحبِّين

والدراسة والتعليم والحياة المكدَّسة بالزهور التي تَنبُت في قلوبنا الغضَّة المُقبِلة على الحياة بحبٍّ وحماسٍ.

هكذا تبدَّل كلام شعبان وأسئلته، بدلَ أنْ ينشغل بالسؤال عن أحوالي وآخر أخباري وأحكي له بالتفصيل عن ديمة وابني الذي لم أره، أو حتى أخبره بالمتعة التي رأيتها معها في شقة أكتوبر، أو عن الجمبري المشويّ في الفرن أو المُحمَّر، سأل بروتينيةٍ شديدةٍ سؤالاً أو اثنين عن أحوالي وأخباري ولم ينتظرْ إجابةً، ثم هجم بأسئلته السياسية التي هي وجهةُ نظرٍ أكثر مِنها أسئلةٌ، سلَّمت على الأستاذ غانم ابن جمعة أبو هارون عضو جماعة الإسلامية الذي يتعامل معي باحترامٍ كبيرٍ ولكنّه كثير الجدال في الدين والسياسة، ويظنُّ أني ما دمتُ أرتاد المسجد فيمكن أنْ أنضمَّ لهم.

غانم سُجِنَ كثيرًا هو وأخٌ له آخرُ وبقيا في المعتقل أعوامًا لم تغيِّر فيهما شيئًا، انتهز فرصةَ انقضاضِ شعبان عليَّ في حوارٍ سياسيٍّ فاشترك معه يؤيِّد رأيه ويعاونه على إقناعي ظنًا أني على وشك، كنتُ أستمع لهما

لأعرف فقط، أريد أنْ أعرف وأعلم رأيهما ووجهة نظريهما دون أدنى محاولةٍ لأنْ أعرِّفَهما رأيي المُخالف أو أقنعهما بشيءٍ آخر.

بين حينٍ وآخر أختلس النظر إلى الجهة المقابلة حيث قبر أبي، يتحدَّثان عن القتل وفضِّ الاعتصامات وأنا لا أفكِّر إلا في موت أبي، يَشكُوان القسوة مِن النظام ثم في غفلةٍ منهما يؤكِّدان أنَّ خطأ الإخوان الوحيد أنهم لم يَقتُلوا مثل الذين جاءوا بعدهم، ويتندَّمون على أنهم لم يستغلّوا الفرصة ويقتلوا ويسجنوا المعارضين لهم حتى يستتبَّ لهم الحكم، شعبان يعرف أني ضدّ القمع وضدّ القتل ودائمًا ما يحاول الدخول لي مِن هذا المَدخل، وغانم يحاول الدخول لي مِن باب العلم ومسئولية أستاذ الجامعة الذي هو ضمير الأمة كما يقول.

الحقيقة أنا لا أحسُّ شيئًا مِن كلامهما، ما يشغلني هو ابني الذي لم أره وديمة التي هربتْ بجَمالِها وروعتها وتركتْ وراءها دهشتي مِن أنوثتها التي مازالت تسيطر عليَّ وتشدُّني إلى أمريكا شدًا، وأحيانًا تجعلني متهورًا أتصوَّر نفسي قادرًا على إجبار عبد الحميد على إخلاء أرضي أو

أني أقتله أمام أبنائه وأمام كلِّ رجال المحارب دون أن يجرؤ أحدٌ على اعتراض طريقي وكأني عمر بن الخطاب يوم قال مَن أراد أنْ تثكله أمّه فليتبعني خلف هذا الجبل! جَمالُ ديمة يجعلني متهورًا ولكني في النهاية ألزمُ الصمت وأستمع لهما وأستمع لكميل وأشكو للأشجار وللنخيل دون جدوى.

مِن بعيدٍ أشار لي كميل بأنَّه في انتظاري حتى نذهب للجلوس في أرضهم تحت نخلةٍ كالعادة نستمتع بظلِّها ونتبادل آخر الأخبار وأحداث المحارب وأحوال الناس فيها، ذهبْنا وجلسْنا وأكلنا بلحًا صغيرًا أخضرَ لم يَسْتوِ بلحًا أصلاً، بل هو شيءٌ غالبًا ما يكون مُرًا وله طعمٌ جذَّابٌ، شعرتُ لأول مرةٍ برغبة كميل في الحديث في السياسة حين سألني عن رأيي في أحوال مصر وما تمرُّ به، لم أرغب في مُجاراته وتهرَّبتُ مِن الحديث في السياسة بكلامٍ عامٍّ عن أملٍ ورجاءٍ ودعاءٍ إلى الله بأنْ تكون أحوال مصر أفضل في القادم، وهو ظلَّ على عادته غير لحوحٍ وتقبَّل إجابتي وانتقلنا إلى كلامنا العادي الذي لا نملُّ مِنه عن الأرض والحبّ والزرع وأنواعه وصفاته والبلح الأصفر والبلح الأحمر الذي لم يظهر مِنه شيءٌ بعد، وعن

الشَّرود الأبيض اللامع، وعُدْنا بعد أذان المغرب وكلُّنا يُجرجِر ساقيه مِن تعب التجوُّل بالكلام في الغيطان والقفز وراء الحيوانات ورياح العصاري الرطبة التي تُنذِر الزرع والناس بمقدم الليل والذئاب التي انقرضت.

سافرتُ إلى القاهرة لبعض الأعمال الطارئة الخاصّة بالتصحيح والنتيجة وقررتُ أنْ أنهيها وأعود لأحاول الاستمتاع بتنفُّس الهواء الذي مرَّ على أنف أبي الشامخ، وأتشمَّم تراب المحارب الذي يربطني به، بعد يومين فقط اتصل بي كميل وأخبرني أنَّه يريدني في أمرٍ خطيرٍ ولا يمكن أنْ يخبرني به في التليفون، أصرَّ كميل وأصرَرْتُ أنْ يعطيني فكرةً فقط عن هذا الأمر الخطير الذي لن أصبر عليه طول الطريق مِن القاهرة إلى المحارب حتى لو قرَّرتُ أنْ آتيه في أسرع وقتٍ.

أخبرني كميل بأنَّ أحد المتشددين في المحارب ألقى عليهم مِن شُبَّاك البيت ورقةً فيها تهديدٌ بالقتل والتشريد مِن القرية، طمأنْتُ كميل وأخبرتُه أنَّ الأمور بخيرٍ وأنَّ الدولة قويةٌ وهؤلاء قلةٌ غبيةٌ لا تعرف خطورة أفعالها ولا تفكِّر بعقلٍ وتتصرَّف بنزقٍ وعشوائيةٍ، ويتصرَّفون

كالأطفال ولا يمكن الثقة في أقوالهم.

قبل أنْ أَصِلَ إلى المحارب بربع ساعةٍ تقريبًا اتَّصلتُ بكميل أخبره بوصولي، وحين وصلتُ للاستراحة وجدتُه مُنتظِرًا، جلسنا وتحدَّثْنا في الورقة التي أُلقِيتْ عليهم واسْتَهَنَّا بالأمر سويًا وقلَّلْنا مِن خطورته، وظلَّتْ عيناه مُعلَّقةً بالبعيد وبحلٍّ جذريٍّ يُخرِجُه مِن هذا كلِّه، لم يصارحْني كميل لأولِ مرةٍ بما أحسَّه في قلبه مِن الاضطراب والقلق، وربما لأنه يعرف أني معتادٌ على السؤال عن الأسباب وما يخافه لا أسبابَ واضحةً عليه غير اضطرابِ الرياح وتلوُّث هواء المحارب بالمبيدات وعفرة التراب الملوَّث بالرَّوْث، وكلُّها أشياءُ تَعوَّد عليها صدرُنا وهضمها جيدًا.

خشيتُ إنْ ألحَحْتُ عليه في السؤال عمّا يُخيفُه ويقلقه ويُخفِيه في قلبه أنْ أرسِّخ هذا الخوف والاضطراب وأزيده، وهكذا تكلَّمْنا في الأمور العادية وحياته وعاداته وماذا يفعل في أرضه وأخبار أخته جورجينا وأمه التي تريد أنْ تطمئنَّ عليه وتُزوِّجه لترى له ابنًا، أخبرني أنَّه سيذهب غدًا إلى المركز ليقدِّم في التنسيق الإلكتروني لجورجينا في الكلية، وسألته

لماذا لا تذهب بمفردها وبالأخصّ أنها تعتاد الذهاب للمركز للدروس؟ فأخبرني أنه يريد أنْ يكون معها في اختيار الكلية ليُشارِكها الفرحة ويرشدها، وسألني إنْ كنتُ أريد شيئًا مِن المركز ثم ذهب ونحن على وعدٍ باللقاء بعد أن يأتي غدًا مِن المركز.

غيَّرتُ ملابسي ولبستُ الجلباب الأبيض وبلَّلتُ خبزًا جافًا مِن الكثير في الاستراحة لديَّ، وأكلتُ مِن الجبن القديم الكثير كذلك، وشربتُ ماءً كثيرًا، وشعرتُ ببعض الألم في جانبي الأيمن مِن ناحية البطن ومِن الظهر كذلك، فخمَّنتُ أنَّ الأملاح الزائدة قد تكون أتعبت الكلى، تضخَّم اكتئابي وقررتُ أنْ أخرج للمشي بموازاة بحر يوسف لمدةٍ طويلةٍ بين الماء والزروع حتى أتعرَّق وتتسرَّب الأملاح وأتخلَّص مِن الاكتئاب بغير أغاني محمد منير وفيروز والصديق أبي عبعاب وحكايات ألف ليلة وليلة الإذاعية.

حين عدتُ إلى الاستراحة بعد المغرب لجأتُ للكمبيوتر أفتحه وبداخلي فضولٌ كبيرٌ لشيءٍ ربَّما يكون جميلاً لا أعرفه ولا أعرف موقعه أو اتجاهه

ولكنه حتمًا سيغيِّر حالتي، ربَّما يكون رسولَ الموت مخبأً في رسالةٍ إلكترونيةٍ أو فيروسًا قاتلاً أو تواصلاً مع مجرمين، لا أعرف هذا الشيء بالضبط ولكنه شيءٌ جديرٌ بأنْ أفتح له الكمبيوتر، وحين رأيتُ برنامج الياهو على سطح المكتب تذكَّرتُ رسالة ديمة الأخيرة وأنه مرَّ عليها مدةٌ طويلةٌ دون أنْ أعرف أيَّ جديدٍ عنها أو عن موقفها مِن محلِّ الحلويات واستقرارها في أمريكا.

تجوَّلتُ في الفيس بوك وبعض ملفّات الكتب باحثًا عن كتابٍ جيدٍ أو روايةٍ، وتجاهلتُ ديمة وغربتها، على أملِ أنْ أظلَّ مُغلِقًا عينيَّ عنها حتى تأتيني مصر فجأةً فتكون أعظم مفاجأةٍ تُجدِّدُ حياتي وتجعلني أبدأ مِن جديدٍ وأنا أستشعر موت أبي نقطة قوةٍ لي وليس نقطة ضعفٍ.

أريد أنْ أبقى هكذا حتى تأتيني ديمة مِن وراء ظهري وتضع يديها على عينيَّ وأعرف يدها وأصابعها قبل أنْ أضع يدي عليها وأتحسَّسها مُدَّعيًا أني أحاول معرفتها، المفاجآت الجيدة قليلةٌ، والفرحة غالبًا لا تأتي فجأةً إذا جاءتْ أصلاً، الأحزان والمصائب فقط هي التي تأتيني فجأةً.

أفراحي كلُّها هكذا، لا تأتي فجأةً، أول مرةٍ فرحتُ فيها فرحًا كبيرًا وفرح أبي يوم فزتُ في مسابقة تحفيظ القرآن في المحافظة وشارك فيها كُتّاب الشيخ مجاهد مع بقية الكتاتيب، أخبرني الشيخ مجاهد قبلها وأخبر أبي أني سأفوز وسيعطونني مبلغًا كبيرًا قد يتجاوز المائة والخمسين جنيهًا، وبعدها بأسبوعٍ تقريبًا تأكَّد الخبر والشيخ مجاهد يعطي أبي الفلوس فيأخذ أبي المائة ويترك له الخمسين وهو يكاد لا يصدِّق هذا الكرم الذي يدهشه كلَّ مرةٍ مِن ابن أحمد الشافعي الذي يعرفه جيدًا.

ويوم ظهرت نتيجة الثانوية العامة التي ينتظرها أبي فاجأنا موت نصرة، ولم يكن التعيين في الكلية مفاجئًا بل سبقته مقدماتٌ كثيرةٌ بنجاحاتٍ كبيرةٍ في السنوات الأربع، قبل مناقشة الدكتوراة بأيامٍ وأنا أمضي بطيئًا إلى المناقشة مات أبي وانهار كلُّ شيءٍ، كأنَّ كلَّ ما مضى ما هو إلا قلعةٌ رمليةٌ شيَّدها طفلٌ صغيرٌ يلعب مع أقرانه برمال الشاطئ المبللة.

مات أبي وموته هو العاصفة التي هبَّتْ فاقتلعت كلَّ الأفراح من حياتي، حتى هروب ديمة برغم أنها أعطتني مقدماتٍ وإشاراتٍ لطموحها في

السفر ورغبتها في عدم البقاء في أيِّ دولةٍ عربيةٍ، فقد فاجأ قلبي الذي لم يكن يصدِّق أبدًا أنها ستتركه بعد أنْ فتحتْ له أبواب النعيم والحب.

أريد أنْ أتجاهل التواصل مع ديمة حتى تأتيني هذه المرة مفاجأةٌ سارةٌ، هل بإمكاني حقًا أنْ أوجِّه القدر وأُرغِم الأحداث على أن تمنحني شيئًا مفرحًا؟ تماديتُ في تجاهُل ديمة تمامًا حتى انقضى أغلب الليل ونمتُ مثقلاً بالهموم والكآبة وآملاً كالعادة في صباح يومٍ جديدٍ يتأكَّد فيه حين الصحو أنَّ كلَّ ما مضى ما هو إلا كابوسٌ ثقيلٌ غيرُ حقيقيٍّ ولم يحدث شيءٌ مِن كلِّ هذا، حتى ثورة يناير التي شاركتُ فيها بسعادةٍ وفرحٍ لم تحدث ولم تقمْ حربٌ في سوريا، ومصر كما هي وأبي مازال يخبرني برغبته في السفر إلى القاهرة ليغيِّر هواءه ويستمتع بالبعد عن أسمى بعض الوقت.

استيقظتُ بتكاسُلٍ وتسيطر على رغبةٌ شديدةٌ في أنْ أغرق في سباتٍ أقوى يبقيني أيامًا أو شهورًا، كلُّ خلايا الجسم ترفض الصحو برغم أنها ملَّت النوم، عقلي يسيطر عليها جميعًا وعقلي لا يرغب في الصحو حتى

لا يحدُثَ مثل كلِّ مرةٍ وتتأكَّد له حقائقُ الشرِّ تدريجيًا ويتأكَّد أنَّ كلَّ هذا السوء الذي أعيشه حقيقةٌ.

لا أدري ما الذي دفعني لأفتح الكمبيوتر قبل أنْ أفعل أيَّ شيءٍ في هذا الوقت بعد الصحو مباشرةً، لم أتصل بكميل لأطمئنَّ عليه أو لأعرف متى سيعود مِن المركز وأسأله عن التنسيق وأخبره بأنْ يأتي لي ببعض علب التونة واللانشون والخبز الطازج وغيرها مِن الأطعمة التي تساعدني على البقاء في المحارب دون عناءٍ، ودون أنْ أُرسِل لأسمى مَن يأتيني بطعام فتعنِّفه وترسل لي معه رسالةً شفويةً بأنها ليست بعيدةً عني وأنَّ بيت أبي مازال به بطٌّ ووزٌّ وفراخٌ بكلِّ الأعمار والأحجام.

أجَّلتُ الاتصال بكميل قليلاً، وفتحتُ الكمبيوتر دون أنْ أصلّي الصبح، وسيطر عليَّ غباءٌ نادرٌ بأنَّ ركعتي الصبح أقلُّ بكثيرٍ وأهون مِمّا أحتاج إليه مِن التواصل مع الله، فما أريده لا يقلُّ عن ألف ركعةٍ متواصلةٍ على الأقل حتى أُغسَل مِمّا مضى تمامًا وأبدأ بدايةً جديدةً لا تعشِّش الكآبة والمصائب في الهواء الذي أتنفسه، ركعتا الصبح غير كافيتين، أول ما

فتحت صفحة البريد الإلكتروني وجدتُ رسالةً جديدةً مِن ديمة فتحتُها دون تأمُّلٍ كثيرٍ أو توقُّعٍ لمضمونها، وطالعتني في البداية صورة ابني يحمله شابٌّ ثلاثينيٌّ أسمرُ أو بالأحرى زنجيٌّ يبدو أنه مُهجَّنٌ، وتحت الصورة قرأتُ رسالة ديمة:

أهلاً يا حميد، كيف أحوالك، أرجو أنْ تكون بخيرٍ، وكلّ أهلك وأحبابك بخيرٍ، لن ألحَّ عليك مثل كلّ مرةٍ في التفكير في السفر إلى أمريكا، فأنا تأكَّدتُ أنَّ حبَّك لابنك أقلّ بكثيرٍ مِن حبك لأبيك وجدودك ولبلدك، وأعرف أنك تعاني ماديًا حتى لو أظهرتَ أنك قادرٌ على إرسال مائتي دولارٍ، وأريد أنْ أريحك مِن هذا العناء لأني الآن لست بحاجةٍ لهذا المبلغ، وأحبّ أنْ أخبرك أني تعرَّفت على ربيع وهو شابٌّ تونسيٌّ عمل مع عمتي مِن صغره في محل الحلويات وكان يعرف كلّ تفاصيله المادية واقترح تحويل المحل إلى مطعم هوت دوج ووافقتُ باعتباري مالكة المحل الجديدة، والمشروع الآن أفضل، ويعود عليَّ بدخلٍ أفضل، ومرَّ شهران حتى الآن استطعت تسديد بعض أقساط الديون. أنت أولى بهذا

المبلغ وإذا احتجت لك في شيءٍ سأبلغك وسولي (تقصد سليمان) ابنك بأفضل حالٍ كما تراه في الصورة، أريدك فقط أنْ تفكِّر في زيارتنا ولو لمدة أسبوعٍ.

كدتُ أبكي وخطر بذهني أني لن أرى ابني أبدًا، وأنَّ ديمة لن تأتي وأنا لن أسافر، سفري الوحيد المتوقَّع هو لمقابر المحارب حيث الغرفة الثانية مِن المقبرة بجوار أبي، ديمة مستقرَّةٌ ومَن يعرفها جيدًا يتأكد أنها قويةٌ وعنيدةٌ وستنجح في أمريكا لأنها تعشق الاستقرار وتُجيد التعامل معه، ديمة تُجيد التعامل مع الأيام الرتيبة والأوقات الهادئة، تستثمرها جيدًا وتُبدِع فيها وتخرج كلَّ طاقتها، الضوضاء والاضطرابات تهدمها تمامًا، لا أدري هل سيكون ابني مثلي أم مثلها، أريده مثلها حتى لا يعاني هناك، أريدها فقط أنْ تأتي به يومًا ما حين يصير شابًا قويًا، وتُريه الشَّرود الأبيض، وتريه قبري وقبر جدّه سليمان، وتُريه طريق الجِمال الذي اندثر تحت أطنان الزبالة والروث، وتُريه نخلَ جدوده الذي يتساقط واحدةً بعد الأخرى.

العام الماضي في بداية مرض أبي واكتشافه لتضخُّم عضلة القلب وقعتْ نخلةٌ على محمود أبي حسين راعي النخل والقائم على تهذيبه وتلقيحه وجني ثماره، أريد أنْ تقتلني مثله نخلةٌ أخرى طويلةٌ تفاجئني بجذعها الذي لا يدَعُ لي فرصةً لصراخٍ أو إخراج آخر نفسٍ فزت به مِن هواء الجوخدار أرض النخل والنسيم.

تغيَّرتْ كوابيسي، وتأكَّدتُ أنَّ كوابيسي القديمة ستزول تمامًا وأني إنْ نمتُ بعد ذلك سأنام نومًا هادئًا مريحًا، كوابيسي ستكون كابوسًا واحدًا يأتيني في الصحو؛ ابني يلاعبه الشابُّ الأسمر الذي لا أعرف عنه شيئًا العائش بهدوءِ أمريكا ورأيته في الصورة يحمله على كتفيه، والشابّ الأسمر المجهول يلوِّث جمال ديمة ويلوِّث بياضها ويخترق أسرارها ومسامها على سريرٍ في حجرةٍ ذات طرازٍ سخيفٍ لا دفء فيه، ديمة التي عرفت الحياة على يديَّ وعرفت الحبَّ على سريري ولامس بياضها دفء الرجل في حضني ستتلوَّث للأبد، أم ابني وحبيبتي وخيط النور الذي لمع في حياتي فجأةً سيتلوَّث ويتوه في ظلام العالم، كابوسٌ واحدٌ يمتدُّ إلى ما لانهايةٍ وأنا أشاهد مرغمًا، لأنَّ فضولي سيُجبِرني على متابعتهما.

أخرجتُ الموبايل لأتَّصل بكميل، لم يردَّ، كرَّرتُ الاتصال أربع مراتٍ ولم يردَّ كذلك، في الخامسة ردَّ عليَّ شخصٌ آخر غير كميل يبكي، سألني هل أنا قريبٌ له أو أعرفه، لم أفهم مِن الرجل شيئًا، يتكلَّم باضطرابٍ وبكاءٍ وحوله جلبةٌ وأصواتٌ كثيرةٌ وصراخٌ كثيرٌ، بعد وقتٍ قليلٍ بدأ الرجل يسيطر على نفسه، وبدأتُ أفهم بعض كلامه، قال: «منهم لله ولاد الحرام ضربوا الكنيسة والناس ماتت، أنت تقرب لصاحب الموبايل، الله يرحمه لو قريبك تعالَ عشان تاخده.» لم أستطع إكمال الاستماع وأغلقتُ الخطّ، كميل قليلاً ما يذهب للكنيسة أصلاً، وأين جورجينا؟ ومَن الذي ضرب الكنيسة؟ وكيف ضربها؟ ورأيتُ الدنيا كلّها غائمةً بامتداد الأفق وطوله وعرضه وعرض كلِّ الهواء أمامي، كلُّ شيءٍ غائمٌ مثل الأفكار التي في عقلي.

وفجأةً سيطر عليَّ أنّ كميل لا يمكن أنْ يموت، كميل بالتحديد وجورجينا لا يمكن أنْ يموتا، لأنَّ كميل صديقي الوحيد الذي بقي مِمّن حولي، وهو أخو جورجينا الوحيد وإنْ مات ستموت أمّه وستموت جورجينا وستموت كلُّ الشردان الصغيرة البيضاء وستموت أرضهم الواسعة وستُقسِم أنَّها لن

تُنبِت شيئًا بعدها، وسيختلُّ كلُّ شيءٍ في هذا الكون.

اطمأننتُ قليلاً وبدأتُ أرى هواء الغرفة، وذهبتُ للسرير أستريح عليه وأراجع أفكاري وأفكار المُغرِض الخبيث الذي ردَّ عليَّ مِن تليفون كميل وقال إنه مات، مددتُ جسدي ورحتُ في سباتٍ عميقٍ كنتُ أرجوه.

استيقظتُ على حمد وحسن وهما يفتحان باب الاستراحة ويُلبساني ملابسي ويأخذاني لأسير في جنازةٍ احتشد فيها كلُّ رجال ونساء القرية، جنازةٍ ضخمةٍ جدًا، حتى الأطفال والأبقار والشردان والنخل، كلُّ شيءٍ في المحارب احتشد في الجنازة التي اتَّجهت إلى الكومة الصغيرة مِن المقابر التي تُقابِل مقابر المسلمين ويسمّونها مقابر النصارى، حين اتَّجهوا إلى هذه المقابر سألتُ عن كميل ولم يجبني أحدٌ فتأكَّدتُ أنَّ الموت الذي يلوِّث كلَّ هواء الكون الآن وينتشر كالوباء أخذ كميل وجورجينا، الموت يتعمَّدني أنا شخصيًا، مشكلتي معه شخصيةٌ، وهو مازال يُرسِل لي الشَّرود الأبيض ليطَّلع عليَّ ليعرف أحبابي ويأخذهم.

obeikan.com

-٦-

وليلٌ مقيم

هجم الظلام بشكلٍ مفاجئٍ قبل أوانه بكثيرٍ، كلُّ شيءٍ مظلمٌ حتى قلبى لم يبقَ فيه شعاع الضوء القديم الذي ورثته عن أبي وزادته نصرة وهجًا، يدُ حسن تربط على رسغي كأنَّه يسحب بقرةً، شعرتُ بالمهانة وكرهتُ الحياة أكثر مِمّا أكره الموت، انمحى تمامًا تفكيري في كميل أو في جورجينا أو أمّ كميل أو أسمى أو أبي أو نصرة أو ديمة أو ابني المُعلَّق على أكتاف العربيّ الأسود المهاجر إلى أمريكا الذي أتيقَّن مِن استيلائه على ديمة في يومٍ مِن الأيام، نسيتُ كلَّ شيءٍ، نسيتُ عملي في الكلية وقضية الأبحاث المسروقة التي فجَّرتُها وأَثَرْتُها حول بعض

obeikan.com

الشخصيات الفاسدة وفجَّرت العداوات حولي، فقط سيطر الظلام على كلِّ شيءٍ، برغم أننا في الصيف شعرتُ كأنَّ الأرض موحلةٌ ورجليَّ تُغرَس في طينٍ شديد البرودة، لولا الصداع الرهيب الذي يملأ فراغ جمجمتي كلّها لشعرتُ أني مِتُّ، الصداع والوحل الذي تنغرس فيها رجلاي تؤكِّد أني لازلت حيًا، والظلام يؤكِّد خلاف ذلك، فأشعر كأني دخلتُ القبر حيًا.

الطبيب الذي جاءوا به قال هذا فقدٌ مؤقَّتٌ للبصر بسببٍ نفسيٍّ، وارتفاع ضغط الدم سبَّب انفصالاً في الشبكية والعصب البصري، والأمر يحتاج لاستقرار الحالة النفسية وبعض العلاج الطبيعيّ للرأس وللجسم كلّه، سمعتُ بكاء أسمى وهي تندب حالي وحالها، فتمنيتُ أنْ أرى ملامح وجهها، وعجزتُ عن تخمين تعبيراتها وإحساسها تجاه هذا العمى الذي أصابني، وتلك الحالة غير المتوقعة، اقتربتْ مني بشكلٍ لم أعهده مِن قبل، وبحنانٍ غير معهود كذلك سألتني عمّا يحزنني، فلم أجبْ، كرَّرتْ بحنانٍ ورقةٍ أكبر: ما لك يا حميد، زعلان ليه؟ إيه اللي ناقصك؟

عجزتُ عن الردِّ، لم أجدْ شيئًا واضحًا يُحزِنني، أو بالأحرى عجزتُ عن

وصف ما يُحزنني لأنه أكبر مِن أيِّ جملةٍ أقدر على صياغتها. أنا حزينٌ لموت أبي، وحزينٌ لموت كميل، وحزينٌ لموت نصرة، وحزينٌ لموت جورجينا، وحزينٌ لطمع عمي عبد الحميد، وحزينٌ لأنَّ كميل لم يخبرني بموعد موته وكذبَ عليَّ لأول مرةٍ، حزينٌ لأنَّ ابني سيعيش مع أمه التي يُسيطر عليها تمامًا الأسود العربيّ المهاجر إلى أمريكا، حزينٌ لأحوال مصر السياسية والصراع الدائم الدامي فيها وفي أغلب الوطن العربي، حزينٌ لأنَّ أسمى مِن قديمٍ جدًا بعيدةٌ عني وكأني وُلِدتُ بغير أمٍّ، ومع ذلك فهي مازالت حيةً، وقريبةً جدًا مني، على الأقل مكانيًا.

أقاوم الصداع حينًا وأنشغل عنه أحيانًا بخيالاتي المريضة المرعبة، الظلام الرهيب الذي يلفُّني لفًّا؛ روحًا وجسمًا، يساعد على تنامي الخيالات المريضة، أتخيَّل ديمة والأسود العربي المُهاجِر يُضاجِعها بعنفٍ في صالةٍ فاضحةٍ تطلُّ على الشارع، وابني الصغير ملقًى على سجادةٍ رخيصةٍ يطالع أمه في فجورها دون أنْ يفهم شيئًا، ويناغيها بإنجليزيةٍ لم تُولَد بعد.

عمي عبد الحميد جاءني وجلس قريبًا جدًا مني، يبدو أنَّهم يخشون ألا أدرك حضورهم، كلّهم يريدون تأكيد الحضور فقط، كلَّمني بحزنٍ وسألني بمكرٍ عن تأثير هذا العمى على عملي، وفرح جدًا حين أكَّدتُ له أني أعمل بكليةٍ نظريةٍ وفَقْدُ البصر ليس عائقًا فيها مِن أداء أغلب الأعمال، كالمحاضرة والبحث، بقيتُ كثيرًا في الاستراحة دون أيِّ حركةٍ، قليلاً ما كان يصطحبني حسن إلى القاهرة للكشف أو عمل الأشعة وأعود بعدها سريعًا.

أصبحتُ محاصرًا بشكلٍ خانقٍ وتمنيْتُ الموت كثيرًا، فقدتُ القدرة على الحركة بمفردي، وأصبحتُ مجبرًا على الاستعانة بأحد المقرَّبين حين أتحرَّك، حسن وأسمى وحمد لم يتعودوا معي على أنْ أكون لصيقًا بهم إلى هذا الحدِّ، فقدتُ القدرة على التعامل مع الكمبيوتر ومتابعة رسائل ديمة وصور ابني، أدركتُ الآن أني كنتُ أسافر بالكمبيوتر دون أنْ أدري، في الظلام ذابتْ ملامح المحارب وذابتْ ملامح مصر بسياستها المضطربة وأسئلة الناس التي لا تنتهي، بل ذابت الدنيا كلها، بحُلْوِها ومُرِّها وتلاشتْ في الظلام الذي سيطر على كلِّ شيءٍ، وحده ظلَّ الشَّرود الأبيض يبرق

بين حينٍ وآخر في هذا الظلام، لم أشعر تجاهه بالودِّ أو الأنس برغم أنه الشيء الوحيد الذي أتلمَّس حضوره بشكلٍ بصريٍّ، لا أدري إنْ كانت صورًا حقيقيةً له، أم أنها قديمةٌ مخزنةٌ في الذاكرة، حكايات الناس حولي مُملةٌ وغبيةٌ ولا أريد أنْ أستمع لأحدٍ، يلتفون حولي كثيرًا ويسألون عن نتيجة الأشعة والكشوف ويحاولون بثَّ الأمل في قلبي الذي أصبح أرضًا جدباءَ لا تقبل بذورًا للأمل إلا بعودة كلِّ مَن رحل.

لم أنشغلْ بتحديد عدد الذين يجلسون معي أو أعرفهم جميعًا، في البداية حرصوا على المجيء بشكلٍ ثابتٍ كلَّ ليلةٍ وكأنهم في عزاءٍ، جاء كثيرون مِن القرية كلِّها، ومِن الجيران، وحسن وحمد عكفا على إعداد الشاي وتقديمه والضيوف مشغولون بقصص التسلية والترويح والإضحاك، وبثِّ التفاؤل والأمل؛ أخبرني أحد الجيران بقصة فهيم النادي التي أضحكت المحارب كلها، وبعض العزب والقرى المجاورة الذين سمعوا بها، فهيم ذكيٌّ جدًا وشخصٌ جريءٌ، ومَن يدقِّق في الناس مثلي يعرف أنه مثقفٌ وجريءٌ أكثر مِن كثيرٍ مِن حاملي الشهادات.

أذكره جيدًا وأذكر تعليقاته ونوادره القديمة التي انشغلتُ في مدةٍ سابقة بروايتها، هذه المرة أضحكَ فهيم البلدة كلّها مجتمعةً وكأنه عرضٌ مسرحيٌّ أَعَدَّ له مسبقًا بإحكامٍ وبسرعةِ بديهةٍ نادرةٍ، فهو عندما قرَّر هدم بيته الطيني وبناءه بالطوب الأحمر حاول بعض التغييرات في الجهة التي يفتح الباب عليها لأنَّ بيته يواجه الزراعة وعلى ناصيةٍ، وإذا بالناس حين يمرُّون عليه يغمرونه بالنصائح المتناقضة، فأحدهم ينصحه بأنْ يفتح بيته ناحية الغرب، وآخر ناحية الشمال، وآخر ينصحه بالاثنين، وآخر ينصح ببابٍ صغيرٍ، وآخر ببوابةٍ كبيرةٍ، وهكذا.

فأَمَرَ فهيم زوجته بأنْ تصرخ بأعلى ما لديها وكأنه مات، وحين رفضتْ في البداية هدَّدها إنْ هي لم تفعل تأخذ ملابسها وتذهب لبيت أبيها، ففعلتْ واحتشدت البلدة كلّها في دقائقَ معدودةٍ، فصعد فهيم تلة السباخ التي أمام البيت وكأنه سيخطب فيهم، سأل في البداية: «فيه حد غايب؟» استغرب الناس السؤال، وبَدَتْ عليهم علامات الدهشة والتساؤل عن سبب الصراخ، كرَّر فهيم سؤاله، وقال: «قولوا لي بقى أفتح الباب كيف؟ مغرَّب والا مبحّر؟ عشان بعد كدا اللي هيتكلم معايا

ويقول مفتحتش في الجهة دي ليه هضربه بالجزمة.» انفجر الناس في الضحك وسقط بعضهم على الأرض مِن شدَّة الضحك، وأنا حين سمعتُ الحكاية بأكثر مِن روايةٍ مختلفةٍ لم تتحرَّك شفتاي، لابُدّ أنَّ بعضهم ظنَّ بي الجنون، وبعضهم ظنَّ أني غير موجودٍ حقيقةً، وأنَّ هذا الذي يرونه مجرد شبحٍ أو روحٍ لا فعلَ لها أو حركةً.

بعد حوالي شهرٍ انصرف الجميع، عدا أسمى التي تأتيني بالطعام ثلاث مراتٍ في اليوم، وحسن الذي ارتاح قليلاً مِن السفر معي إلى القاهرة بعدما بدأتْ حالتي تستقرُّ قليلاً ويزول الصداع تمامًا، انتهاء الصداع هو بداية تأقلُمي مع الحياة ومحاولة التعايش مع الظلام الذي غرقتُ فيه، قال الأطباء إنَّ انتهاءه دون مسكناتٍ ربما يكون بدايةً لتصحيح أوضاع العين وعودة الإبصار، وألمح طبيبٌ آخر أنه قد يكون مؤشرًا لاستقرار الأمور على ما هي عليه إلى الأبد.

بدأتُ لا أنشغل بالنور ثانيةً، وتشغلني كثيرًا حركتي في العتمة وبقية جسمي الذي لا أشعر فيه بأيِّ خللٍ، بل أشعر بالقوّة والعنفوان، تناقضٌ

عجيبٌ، بدأتُ آكل بنهمٍ، أسمى تعوَّدتْ أنْ تأتيني بفرخةٍ أو بطَّةٍ كاملةٍ كلَّ يومٍ، آكُلُها كُلَّها، حاولتُ كثيرًا في غياب حسن أنْ أتحرَّك في الاستراحة بمفردي وأتعوَّد على المسافات فيها وأقيسها بالخطوة، أحدِّد موضع السرير والباب بعده الذي ينفتح على الصالة ومنها يمينًا بخطوةٍ واحدةٍ إلى المطبخ الصغير، ثم ثلاث خطواتٍ ونصفٍ باب الحمّام وبعده حجرةٌ أخرى فيها الكمبيوتر والكتب التي أشتاق إليها جميعًا، أشتاق لصورة الكلام والحروف، أريد أنْ أقرأ أكثر وأكثر.

فكَّرتُ في شخصٍ يمكن أنْ أعتمد عليه في القراءة عليَّ فشعرتُ باليأس، وندمتُ على أني لم أتدَّرب على القرب مِنهم أو على أنْ يقرأ لي أحدٌ مِن قبل، كميل هو الأنسب لأنْ يقرأ عليَّ كتبي بصبرٍ، والأنسب لأنْ يصطحبني إلى الأماكن التي نجلس فيها معًا ويعرفها جيدًا، أين لي بعيني كميل الآن أرى بهما وأسمع؟ كميل هو الوحيد الذي يعرف قصتي مع ديمة، ورأى ابني في صور الإيميل، لا أحد آخر يعرف بهذه القصة، أخشى أنْ أموت دون أنْ يعرف أحدٌ بالأمر، لم أعدْ أستطيع استخدام هاتفي القديم لأنه دون أزرارٍ ويعمل باللمس، طلبتُ مِن حسن أنْ يأتيني بموبايل يناسب

حالي الجديدة وأتدرَّب عليه، وأتعامل معه بالبحث الصوتي عن الأسماء، ولكنْ كلَّ مَن رحلوا هم مَن أريد البحث عنهم.

سألتُ عن كمبيوترٍ بالنظام نفسه وجاء لي بكمبيوترٍ مناسبٍ للمكفوفين يعمل بريموت مُخصصٍ، ولكني كلّما حاولتُ التعامل معه بكيتُ، لا أريد أنْ يطَّلع أحدٌ على الكمبيوتر أو الإيميل أو على صفحتي الخاصة على الفيس بوك، لا أريد أنْ يصطدم أحد بفيديو قديمٍ نسيتُ أنْ أحذفه مِن فيديوهات الأفلام الإباحية التي كنتُ أستعين بها على برود زوجتي الأولى هبة، هبة لم تأتني ولا مرةً واحدةً في هذه المدة، ربما لم يخبرها أحدٌ، وهي معذورةٌ، لم تتصل وهي لم تخطر ببال أحدٍ فيتصل بها ويخبرها، أرغب في إكمال بحوثي التي بدأتُها على الكمبيوتر، لا أريد أنْ أمليها أو أعمل فيها بطريقةٍ مختلفةٍ عن الطريقة التي تعوَّدتُها.

تقريبًا انفضَّ الجميع عني، لم يتعوَّدوا على قربي منهم بهذا الشكل، بدأتْ أسمى ترسل لي الطعام مع زوجة حسن أو محيمد أو مع حسام ابن ندية أختي، وأحيانًا ترسله مع أحد أبناء الجيران، يأتي بالوعاء الجديد

openkan.com

ويأخذ القديم حسب ما توصيه. وأنا أتحسس غطاءه ككلبٍ عجوزٍ أُصيب بالسعار والعمى، وآكلُ مِنه مباشرةً دون أطباقٍ حتى تملأني المهانة والشعور بالضعف، أتدحرج بعدها إلى الحمام مستندًا على الحائط فأغسل يدي وفمي وأنثر الماء على الجلباب الأبيض الذي تدنَّس كثيرًا.

كرهتُ صورتي التي لم أرها وملأت خيالي بأوساخها، أحيانًا أستحمّ ثم حين أحاول تغيير ملابسي ألبس الملابس القديمة بعدما أرهق مِن البحث والشمشمة في الملابس مُحاوِلاً معرفة النظيف المناسب وأفشل، زاد وزني بشكلٍ كبيرٍ.

أحسستُ بجسمي وهو يتضخَّم ويثقل على الأرض بمرور الأيام والأسابيع البطيئة، وبدأتُ أعتمد على الراديو، سواء الراديو الجديد الذي جاء به حسن بعد طلبي، أو راديو الريسيفر، أستمع لإذاعة القرآن الكريم حين يقرأ عبد الباسط فقط، وأحوِّل سريعًا إلى المحطات الإخبارية حين تبدأ البرامج الدينية العادية، أغلب ما تابعتُ المحطات الإخبارية التي أتلمَّس فيها وجه مصر ومستقبل عيني، سمعتُ أخبار فضِّ الاعتصام وارتحتُ للحسم والقوة التي تحاول أنْ تظهر بها الدولة، وكأنَّ عودة الدولة سيعيد

لي الإبصار أو سيعيدني للماضي بكلِّ تفاصيله.

أعتصر عينيَّ كثيرًا وأجحظهما وكأني سأبصر إذا دقَّقتُ أكثر أو أمعنتُ في الجحوظ، كأنَّ عينيَّ سليمتان، ولكنَّ شيئًا ما هو الذي يحول بينهما وبين صور الأشياء وعليَّ أنْ أدقِّق أكثر أو أمدَّ ناظري مدًا، تصوَّرتُ أنَّ مشاعري تتبلَّد وأزداد قسوةً وعنفًا مع الأيام، وبدأتُ أكره الناس وأرجو موتهم جميعًا، لستُ أدري هل أرجو الحسم مِن الدولة رفضًا للإخوان أم حبًا لمصر التي أريد أنْ أشعر بقوَّتها وأخشى الفتنة التي تفرِّقها، تشكَّكتُ في نفسي كثيرًا كما تشكَّكتُ في كلِّ شيءٍ حولي.

في أوقات الضجر مِن الراديو والمحاولات العاجزة للتعامل مع الكمبيوتر أتجه للحمام بالعدّة التي أجهِّزها، ماكينةُ حلاقةٍ غاليةٍ، وأكثرُ مِن صابونةٍ بألوانٍ وروائحَ مختلفةٍ، وملابسُ نظيفةٌ أبقى أتحسَّسُها لنصف ساعةٍ أو أكثر حتى أميِّزها وأتذكَّرها، وبداخلي رعبٌ مِن لبسها مقلوبةً إنْ نسيتُ التعامل مع التكت الخلفي، فوق القفا مثلما يفعل فاقدو البصر، أحيانًا أنسى وأتعامل مع الملابس كأني مازلت مبصرًا، حَدَثَتْ مراتٍ في البداية

ونبَّهني أحد الحاضرين، أسمى تقريبًا أو حسن ومراتٍ كثيرةً مهجة بعدما جاءتني ثانيةً وأصبحت شبه ملازمةٍ لي.

أحلق ذقني بصعوبةٍ كبيرةٍ، أتحسَّسها بأطراف أصابعي ومعجون الحلاقة تصيبني لزوجته بالقرف في البداية، وجرحتُ نفسي كثيرًا، الحلاقة صارتْ تحديًا لي لابد أنْ أنجح فيه، لم أَعُدْ أستنكف أو أتألم لأنْ تتحوَّل أحلامي مِن أشياءَ عظيمةٍ إلى هذه الأشياء التافهة، تحوَّلت التحديات في تلك الفترة مِن رؤية ابني وعودة ديمة وأبي ونصرة إلى تحدِّي أنْ أحلق ذقني دون جروحٍ، وأستحمَّ وألبس ملابسَ نظيفةً، ومع تعوُّدي على هذه الأشياء ونجاحي فيها بمرور الوقت عادت التحديات القديمة.

حين أتعطَّر بعد هذه العملية الشاقّة في تنظيف نفسي أجلس في الصالة كالمشلول وأسافر بخيالي إلى أمريكا وأماكن أخرى، في الحمّام أبدو كأني سأحضِّر لرسالة دكتوراة أخرى، لم أرتعب حين تذكَّرتُ الدماء التي كانت تنفجر مِن أنفي وأنا أتمخَّط لأنَّ بها شريانًا شبه مفتوحٍ، ينفجر بالدم إذا تمخَّطتُ بقوةٍ، ماذا لو انفجرت هذه الدماء وأنا لا

أستطيع رؤيتها؟ هل سأبقى أبلع الدماء وأنا لا أميِّز طعمهما حتى تُصفَّى دمائي كلها وأموت؟ هل سيستمرّ النزيف دون أنْ أدركه فأرتاح؟ تصورتُ هذه النهاية وقَبِلْهُا وكأنها الفرصة التي ربما تفتح لي باب الفرار مِن الدنيا، باب الفرار الذي ظلَّ قلبي معلقًا به، يبحث عنه في كلِّ ثقبِ إبرةٍ يلوح أمامي، ولو في هذا الظلام الذي يُغرِقني كاملاً.

الموت بقي وديعًا مستكينًا لقرابة العشرين عامًا في حياتي، لم أَعْيَ أو أهتزَّ لوفاة أحدٍ في عائلتنا قبل وفاة نصرة، لم يكن لنا نصيبٌ طوال هذه المدة في السرادقات التي تنتصب بين حينٍ وآخر في شوارع المحارب، وفجأةً هجم الموت أو ثار عليَّ، تمرَّد على صمته معي، وتكلم فجأةً بكلِّ شيءٍ، ثم جاء عند روحي المعذَّبة الهائمة فيه وصمت.

الموت كائنٌ مستفزٌّ، يعرف جيدًا فريسته التي يريد أنْ يحرمها مِنه ويشقيها بالفرجة على رحيل الآخرين، هجم على كلِّ شيءٍ، اللغة التي تطفح مِن الراديو أصبحتْ غارقةً في الموت، أغلب الأخبار تعلن عن أكثر مِن قتيلٍ في مصر، بل قتلى بالعشرات والمئات في العالم العربي

والدول الإسلامية في أفريقيا، حروبٌ وقتلٌ في كلِّ المنطقة المُشتعلة بالصراعات والثورات، لا أدري هل هي ثورة شعوبٍ أم هي ثورة الموت؟ لا أدري هل كان الموت هادئًا حقًا أم أنَّ الذي كنتُ أراه بخلاف حقيقته؟ أُغلقتُ عينيَّ على الضوء وتفتحْتُ على قسوة الموت.

مهجة تفصلني عن هذه الحدّة والخلاف الروحي القاسي بيني وبين الموت، مهجة تفضُّ الاشتباك بيني وبين خطّ النهاية، تبثُّ فيَّ الأمل وكأنَّ قلبي يخضرُّ مِن جديدٍ، وتنبت فيه البراعم وتورق مرةً واحدةً، المستفيد الأول مِن كلّ هذا الذي أُعانيه مهجة، أصبحتْ شبه ملازمةٍ لي، ولا أحد يلومها، زوجها سعيدٌ بالأموال الكثيرة التي أُغدِقُها عليها، أصبحتُ أعطيها تقريبًا نصف الراتب.

عمي عبد الحميد أعطاني عشرين ألف جنيهٍ مرةً واحدةً ومِن نفسه دون طلبٍ، حين فقدتُ البصر، وبعدها بأسبوعين عرضتُ عليه أنْ أبيع له فدانًا بمائةٍ وخمسين ألفًا، فوافق بدلاً مِن أنْ أموت وتؤول الأرض لورثتي دون أنْ يخرج منها هو وأولاده بشيءٍ، ولأني أبيع له أرخص بأكثر مِن مائة ألفٍ جنيهٍ، قسَّط لي المبلغ، كلّ ستة أشهرٍ يعطيني خمسين

ألفًا، اشترطتُ أنْ يعطيني الخمسين الأولى فورًا وفعل، توافُر الأموال عندي أشعرني بالقدرة، وخوَّفني مِن استغفال مَن حولي، أتشكَّك في إجاباتهم حين أسألهم كم تساوي هذه الورقة المالية، أُخرِج الفلوس وأسأل كم تساوي وقلبي متحفِّزٌ على الشكّ.

ذهبتُ للبنك واستعنتُ بصديقٍ قديمٍ فأعطاني مبلغًا كبيرًا كله مِن فئة الخمسين جنيهًا، صنَّفتُ الفلوس في الدولاب، الأوراق فئة الخمسين أُغلِق عليها بالمفتاح بعيدًا عن كلِّ الزائرين، والمفتاح في سلسلة المفاتيح التي لا تغادر رقبتي، والفكة في درج المكتب في الصالة، أخشى أنْ تعطِّل المياه مفتاح السيارة حين أعلِّقها وراء باب الحمام ويصيبه الرذاذ أو الماء الساخن المتبخِّر، أعطي السيارة أحيانًا كثيرةً لحسن حتى يأتيني ببعض الحاجات التي أريدها مِن المدينة، وحين أركب معه أحاول رؤيتها بأنفي، أظلّ أتشمَّمُها، وكأني سأقدر معرفة إذا كان قد خبطها أو رشّ فيها جزءًا أم مازالت كما هي منذ آخر مرةٍ قُدْتُها فيها.

جئتُ لمهجة بغسالةٍ أتوماتيك وشرحتُ لها طريقة الاستخدام، وكادتْ تزغرد لولا خوفها مِن الفضيحة، وكأنَّ الغسالة بقيّة جهازها، جئتُ لها بمطبخٍ جديدٍ وموقدِ غازٍ جديدٍ بخمس عيونٍ وفرنٍ، لم تستخدم الفرن ولا مرةً، مهجة طيبةٌ وجميلةٌ، وجمالها لا يشوِّش عليه الظلام، الفرحة تغمر كلماتها وحنجرتها.

- حاسّة أني عروسة يا أستاذ حميد، عمري ما كنت أطمع بعشر السعادة اللي أنا فيها دلوقت معاك.

ابتسمتُ وتيقنتُ مِن مقولة: «مصائب قومٍ عند قوم فوائدُ.» هي تتعامل كأنها زوجة وسيدة المكان، في النهار تتقافز في كلِّ ركنٍ بفرحةٍ ونشاطٍ، تفكِّر في الطعام وفي الغسيل وفي التنظيف وفي ملابسي وأشيائي المتناثرة في كلِّ مكانٍ بإهمالٍ وعشوائيةٍ، وفي الليل تجلس تحت السرير تدلك لي رجليَّ وتغيِّر لي محطات التلفزيون وتضاحكني، وتصف لي النسوة والممثلات اللاتي لا أستطيع التعرف عليهنّ عبر الصوت وهي لا تعرف أسمائهن، تصف لي جسم الممثلة كاملاً، تصف الأرداف وتعلِّق

على الصدر وتنتقد أحيانًا، وتخبرني أحيانًا أنها أجمل مِن فلانةٍ، وأنَّ صدرها ليس مترهلاً أو كبيرًا مثل فلانةٍ، وأنَّ بشرتها ناعمةٌ أكثر مِن أخرى، تتعمَّد إثارتي، وتحبُّ اللعب في الشعر الخفيف الذي يغطي ساقيَّ، تقول إنه كثيفٌ وناعمٌ، ليس خشنًا أو يشوِّك! وينتهي بها المطاف نائمةً على السرير أمامي في الظلام فأطعنها بكلِّ ما أوتيت مِن قوةٍ، وكأني أنتقم منها، أو أتأكد بها مِن نبض الحياة وأني مازلتُ حيًا.

لولا مهجة ومناطقها الدافئة التي أحفر فيها لانتحرتُ حتى أتخلَّص مِن هذا الكابوس الذي لم يخطر لي ببالٍ، أو أتصوره لمستقبلي مِن قبل، لا تتأخر عني في شيءٍ، بل هي التي تبادر، وأكَّدتْ لي أكثر مِن مرةٍ أنَّ قوَّتي الجنسية زادتْ بشكلٍ كبيرٍ عن قبل فقدي للبصر، أشعرتني بفائدة للعمى، فابتسمتُ بخلاف الكآبة التي تهيمن عليَّ، وتصبر هي دائمًا عليها، ولا تتضجر منها، مهجة أقوى مخلوقٍ في العالم كله، أقوى مِن الحياة نفسها، تؤكِّد لي كثيرًا أنها تمنع نفسها تمامًا عن زوجها، وحين سألتها عن السبب، قالت لي: «مينفعش ياكل معاك من طبق واحد.» اندهشتُ، وحاولتُ أؤكد لها أنَّ هذا خطأٌ وأنَّ زوجها له حقوقٌ عليها،

فقالت إنها طلبت منه الطلاق أكثر من مرةٍ، وهو لا يريد، ويطمع في الأموال، ويقبل بوضعها، ولم يعد يطالبها بشيءٍ، هو متأكدٌ مِن أنها لا تحبه وأنها تتطلَّع للأعلى، ولكنه ربما لم يخطر بباله علاقتها معي أو ما يدور بيننا في الاستراحة، وحين جاءها مرةً في النهار ورآها شبه عاريةٍ لم ينزعج لأني كفيفٌ لا أرى، وانخلعت عيناه على الفلوس التي خطفها من يدها وجرى كالصغار، هي تخبرني بكلِّ شيءٍ عنه.

عثمان الأعرج زَوْجُ مهجة تشغله الفلوس أكثر مِن مهجة، مهجة أبيّة، ومعها يتأكَّد مِن عجزه ودمامته وعَرَجه، ويكره نفسه، و كثيرًا ما تجعله يقوم عنها قبل أنْ يُكمِل، تنهره وتعنِّفه وتعدّل عليه وترفسه برجلها حتى يقوم دون أنْ يقضي وطرًا، يشتم ويسبّ ويهرب خوفًا مِن أنْ تتركه، ويشمت فيه الشامتون.

مهجة جمعت صفاتٍ لا تجتمع غالبًا، أردافٌ ثقيلةٌ مع خصرٍ نحيلٍ ووجهٍ دائريٍّ جميلٍ وعينان عسليتان واسعتان، قديمًا تصوَّرتُ أنَّ جمال الوجه لا يجتمع أبدًا مع الأرداف الثقيلة، وأنَّ النسوة ذات الأرداف غالبًا ما يكنَّ

غير جميلات الوجه، مَحَتْ مهجة هذه الأسطورة كما مَحَتْ أسطورة أنَّ القبلة في العين تفرَّق التي ترسَّختْ في ذهني مِن أيام الثانوية حين تعوَّدتُ سماع هذه الجملة من الموسيقار محمد عبد الوهاب في الإذاعة في أثناء المذاكرة، مهجة الوحيدة التي أقبِّلُها في عينيها كثيرًا مِن قبل العمى وبعد العمى أكثر، دون قصدٍ، وهي الوحيدة الباقية معي، لم أذكر أني قبَّلتُ هبة أو ديمة في العين ومع ذلك افترقتا عني، وكذلك أبي ونصرة، قلب مهجة نبيلٌ وراقٍ، طموحةٌ وشجاعةٌ ورومانسيةٌ، مَن يعرفها جيدًا عن قرب مثلي ويدقِّق فيها، لا يصدِّق أنها بغير أصلٍ، أو أنها ابنة نعيمة الديبة خادمة نصرة، مَن لا يعرف أصلها سيتصوَّر أنها سليلة عائلةٍ كبيرةٍ، جمالها يؤكِّد هذا.

هي تعرف مِن قبل أني أعشق جسمها وأردافها، جسمها يحرِّض على حبِّ الحياة، يحرِّض على مضاجعة الحياة نفسها، أصبحتُ أتذكَّر كثيرًا نكتةً قالها لي أحد أصدقائي قديمًا عن شيخٍ أزهريٍّ كفيفٍ كان يضاجع زوجته بشكلٍ محرَّمٍ، وحين رفعتْ عليه دعوى قضائيةٍ للطلاق لهذا السبب، احتجَّ عند القاضي بأنه كفيفٌ وقال له: «يا بيه أنا رجلٌ كفيفٌ،

أسلِّمه لها في يدها وهي تضعه حيث تشاء.» لم تعدْ النكتة تضحكني كالسابق، فكَّرتُ في الحرام مع مهجة، وكأني نسيتُ أنَّ الحلال معها حرامٌ أصلاً، تعاملتُ معها على أنها زوجةٌ، هل كنتُ سأحتاج لمهجة لو بقيتْ ديمة معي؟ ديمة الحبيبة الهاربة، ومهجة العشيقة التي ظلَّتْ بجانبي، عوَّضني الله بها برغم أني لا أستطيع الزواج منها أبدًا، لم أفكِّر في الأمر لأنه مستحيلٌ، وهي كذلك تعرف أنَّ المعجزات أقرب منه. تعطي ولا تنتظر، هي غير كلِّ نساء الكون، خلقها الله لي فقط.

ظلامٌ دامسٌ ومطرٌ وطفلٌ رضيعٌ مولودٌ لأيامٍ قليلةٍ أحمله على ذراعي وأنا مازلتُ كفيفًا أتلمَّس به طريق الهرب فأسقط به في هوةٍ سحيقةٍ أكثر إظلامًا مليئةٍ بالقاذورات والصخور الذابحة.

أصحو مِن النوم مرعوبًا أخشى الحركة مِن السرير فرارًا مِن مهاجمة هذا الكابوس لي بعد الصحو، لا أقدر على الحركة برغم احتياجي لها لأتأكد مِن أني صحوتُ مِن النوم، تكرَّر الكابوس كثيرًا، أخبرتُ مهجة به، وطمأنتني كعادتها ونصحتني بأنْ أغيِّر جوًا وأستثمر البقيّة المتبقية مِن

إجازة آخر العام، كنا في أول شهر سبتمبر والصراع السياسيّ في أشدِّه في مصر، والأمور في غاية الاضطراب ولا تشجِّع على الحركة، اتَّصلتُ بأحد أصدقائي في القاهرة ليُرسِل لي سائقًا خاصًا، وأخبرتُ مهجة بأني أحضّر لها مفاجأةً كبيرةً جدًا، جاء السائق وحينها أخبرتُ مهجة أنه سيقلُّنا بالسيارة إلى الإسكندرية لنقضي هناك بعض الوقت، تركتُ له مهلةً كي يطمئنَّ على كلِّ شيءٍ في السيارة وما قد تحتاجه مِن الصيانة قبل السفر، ومهلةً موازيةً لها لتُعدَّ لنا ما سنحتاج مِن طعامٍ ولتخبر زوجها عثمان، وتجهِّز كلَّ ما سنحتاج له مِن ملابس وغيرها.

في أول طريق الساحل الشمالي بحثتُ عن رقم خالد حارس القرية السياحية ووكيل التأجير فاكتشفتُ أني لمْ أنقلْه مِن الهاتف القديم إلى الجديد، فاتَّجهنا إلى القرية وسألنا رجل الأمن عنه، فأتى لنا برقمه واتصلتُ به وجاءنا على الفور ومعه مفتاح أحد الشاليهات، تعامل معي في البداية على أني مُبصِرٌ، وحين استشعر أني امتُحِنْتُ في بصري مِن النظارة السوداء والتفاتاتي غير الدقيقة تغيَّرتْ نبرته في الكلام وظهر في حنجرته الإشفاق والإحساس بضعفي وكأنه يتعامل مع طفلٍ، فأكثر

من توجيه الكلام دون قصدٍ إلى السائق ومهجة.

دخلتُ الشاليه بعدما فتحتْ مهجة الأبواب، وأدخل السائق الحقائب، ومضى بالسيارة يأتينا بالطعام مِن المطعم الذي وصفتُه له، وجاء وأكل معنا، وحين أخبرته بالحجرة التي سينام فيها، أكَّد أنه اتفق مع خالد على مكانٍ سينام فيه مع العمال طول مدة بقائنا هنا في الشاليه، عرفتُ أنه ذكيٌّ ولا يريد أنْ يكون عذولاً بيني وبين مهجة التي لابد أنه أدرك مِن عينيها فرحتها بي وهيامها، ورغبتها كذلك، تركنا السائق ومضى بالسيارة، وأخبرني أني متى اتصلتُ به سيأتي فورًا.

كانت تلك آخر مرةٍ أكل معنا فيها محمود السائق المهذب، بعدها اكتفى بجلب الطعام والأشياء التي نريدها مِن السوق إن أردتُ أنْ تعدَّ لي مهجة طعامًا معينًا، أو أكلةً مِن أكلاتها الريفية التي تتقنها مثل الملوخية الخضراء ومحشوّ الكرنب، بقينا تسعة أيامٍ يغمرها الحب والحيوية، واستمددتُ فرحتي مِن فرحة مهجة التي رأيتُ في كلِّ ما يحدث مصلحتها هي فقط، وكأنَّ الله يكافئها على غربتها وسط أهل

المحارب الذين يطمعون في جمالها ويستكبرون على القرب منها، لأنها ابنة نعيمة الديبة التي لا أصل لها ولا بيت.

فجأةً اشتكت مهجة بردًا في معدتها وآلامًا وصفتها لي فتحولتْ فرحتي إلى رعبٍ كبيرٍ، شعرت بشللٍ، وازدادت عيناي إظلامًا، مهجة تظهر عليها أعراض الحمل، وهي بعيدةٌ عن زوجها منذ أكثر من ثلاثة أشهرٍ، هذا ما أعرفه مِن بقائها معي في الاستراحة طوال تلك المدة، وهي تؤكِّد أنه لم يقربها مِن أكثر مِن ذلك بكثيرٍ، فجأةً انقلبتْ مهجة شيطانًا يريد إكمال دائرة الشرّ والموت التي تحاصرني، مهجة تدبِّر حملها للتزوج مني، أو يكون لي ابنٌ منها يُنسَب لعثمان الأعرج، أفقر خلق الله، وأحقرهم في نظري.

عثمان سيفضحُها ويفضحني، والشلل بداخلي يتضخم ليسيطر على كلِّ شيءٍ، تمنيتُ أنْ يصيب الشلل رئتي، ولكنه كان أجبن من أنْ يفعل، بكتْ مهجة بحرقةٍ وصدقٍ وأخبرتني أنها أخطأتْ عن غير قصدٍ، وأنها ستفعل أيَّ شيءٍ أطلبه منها، وأنها لا ترجو شيئًا من الدنيا سوى البقاء بجانبي،

ضربتْ بطنها كثيرًا وخبطت رأسها في الحائط والسفرة حتى سمعت خبطاتها وكأنها تخبط بيدها، بكاؤها صادقٌ إلى أقصى درجةٍ، يشبه بكائي على أبي وبكائي على نصرة، وحزني على ديمة وابني سليمان.

بعد فترة صمتٍ بيننا استمرَّتْ يومين نزفت مهجة نزيفًا شديدًا، وذهب بها محمود السائق إلى المستشفى وعاد بها ببطنٍ فارغٍ بعد أنْ تواصل معي تليفونيًا وطمأنني كثيرًا، محمود لا يعرف صفة مهجة بالنسبة لي، ولا يتشكَّك في أنها زوجتي، جمالها يؤكد له أنها البنت الجميلة التي أغوت شخصًا مثلي، عادت مهجة بقلبٍ فرحٍ وكأنها تخلَّصتْ مِن جبلٍ على ظهرها، وليس ابنًا حنونًا يخادعها وينمو بحبٍّ ورجاءٍ في بطنها، الدنيا تهزأ بي، تسخر مني بوقاحةٍ كابن ضرَّتها، تمنحني ابنًا يهرب مني ولا أطوله، وفي أخرى ابنًا أهرب أنا منه.

ما فائدة الأبناء والعمى والظلام يسيطران على حياتي؟ ما فائدة الابن إنْ لم أكن قادرًا على رؤيته؟ بدأتْ مهجة تقترب مني ثانية بالتدريج، لم يصدمها أني أكره حملها، تفهم جيدًا أني لا أقبل بابن ينتسب لآخر،

أخبرتني وهى تغرس صدرها في ظهري أنَّ أول شيءٍ ستفعله حين نعود الذهاب إلى طبيبٍ لاستخدام وسيلةٍ لمنع الحمل.

عند هذا الحدّ كأني اكتشفتُ فجأةً أني غارقٌ في الحرام مع مهجة، وأنَّ ما أنا فيه لم يكن ليرضي أبي أو تخيلتُه لنفسي مِن قبل، قديمًا اقتصر الأمر على مداعباتٍ أو ملاعباتٍ أو قُبَلٍ خاطفةٍ أو أحضانٍ أظلُّ نادمًا عليها لأشهرٍ وأتألم كلما تذكرتُ حلاوتها في قلبي، نعم بداخلي غضبٌ وثورةٌ على كلِّ شيءٍ، ثورةٌ على الموت الذي اختطف أبي واختطف نصرة وثورةٌ على الحياة التي رفضتهما، وثورةٌ على الحياة التي تخبِّئ مني ديمة وابني في ركنٍ قصيٍّ مِن الأرض.

غضبي امتدَّ لكلِّ شيءٍ، كلُّ شيءٍ أصبح ملغومًا، فيه قنبلةٌ خطرٌ ستنفجر إذا اقتربتُ مِنه، مهجة قنبلةٌ لو اقتربتُ منها سيتضخَّم بطنها ثم تفجر بي وبفروعي وجذوري، كلُّ شيءٍ ينفجر إلا إطار السيارة الذي أنتظره حتى أهرب من الحياة، كلُّ شيءٍ ينفجر حتى عضلة قلب أبي، إلا رئتيَّ لا يعرف الانفجار طريقهما، عيناي انفجرتْ شرايينهما.

آه لو عرفتُ حياةً أخرى غير تلك التي أعيشها! لو كانتْ حياتي بلاسيتيكيةٌ أو طينيةٌ أرسمها وأشكِّلُها بيدي على شاطئٍ رمليٍّ أو طينيٍّ، آه لو كانت محبوبتي دمية لا تحمل بالأبناء وتهرب بهم! الحياة مع مهجة لا شكَّ ستكون مقيتةً ولا حسَّ فيها ولا متعةً، ولكنها أكثر أمانًا مِن أخطار الفراق، جدران المكان هي التي لا تتغيَّر، هي الوحيدة التي لا تفرُّ ولا تهرب، لم يَعُدْ كابوس الزلازل يزورني، وتبدَّل الكابوس إلى كابوس الطفل الصغير الذي أحمل على يديَّ وأحاول أنْ أجرى به في الظلام ثم أسقط في حفرةٍ سحيقةٍ مليئةٍ بالصخور المُسنَّنة.

برغم أنَّ مهجة تنام في الحجرة المجاورة في الشاليه أحلم بها، أحلم بأني أفترشها، أداعب قفاها، وأقبِّلُها في عينيها، أجد الطفل الرضيع على ذراعي وأشمُّ رائحته وأجري في الظلام، قررتُ ألا أبتعد عن مهجة مهما حدث، لن افترق عن أحدٍ يريدني، سأتركها حتى تفعل مثل ديمة وكلِّ السابقين، لن أهجرها، بل سأبقيها في حياتي حتى تَحْمِلَ وتهرب.

-٧-

حب العمى

في الصباح ذهبتُ لحجرة مهجة وتحسَّستُ السرير لأوقظها، جذبني دفء جسدها، لمستُ بأطراف أصابعي فرحة عينيها، رأيتُ بقلبي ابتسامتها، قامتْ سريعًا، واحتضنتني وضحكتْ ضحكةً خفيفةً بثقةٍ وغرورٍ أعجبني، أصبحتْ أكثر ثقةً لأنها جعلتني أنتصر على خوفي منها، حين احتضنتني مهجة سمعت هدير البحر وزقزقة العصافير، صدمةُ حَمْلِها أفقدتني حاسَّة سماع البحر وأصوات العصافير الفرحة بجمال المكان، أفقدتني شمَّ رائحة الورود التي تُغرِق الشاليه كلّه، بهذا الحضن عادتْ لي بقية حواسي وشعرتُ بقرب زوال العمى، صحيحٌ الصورة

obeikan.com

مازالت مظلمةً ولكنها أقلُّ حدَّةً، ظلامها أرجوانيٌّ عطرٌ.

اكتشفتُ فجأةً أنَّ قلبي هو الذي يرى، لأول مرةٍ أشعر باحتياجي لمهجة في غير العلاقة الجنسية، أحتاج لجسدها ليملأ المكان حركةً وصوتًا ويملأ فراغ قلبي وفراغ أناملي العطشى، وفراغ أذني، أحتاج للمس ملابسها الأنثوية، أريد أنْ أتأكَّد أنها لم تهربْ مثل ديمة أو نصرة، أحتاج لجسد مهجة مثل احتياجي للسعة الشمس.

أصبحنا في منتصف سبتمبر والأقوال متضاربةٌ حول تأجيل الدراسة وتحديد موعدها، رسميًا أعلنوا أنها ستبدأ في الثاني والعشرين من سبتمبر، والأقوال متضاربةٌ بعد ذلك، لم يَعُدْ هناك شيءٌ نهائيٌّ وقطعيٌّ، ولم يَعُدْ أحدٌ يسلم تمامًا بما تأتي به القنوات، مازالت أمامي فرصةٌ لتعويض ما مضى في أسبوعِ مصيفٍ حقيقيٍّ مع مهجة.

أفطرتُ معها وأخرجتْ لي ملابس البحر، ولبستْ هي عباءةً خفيفةً، ووعدتني أنْ تنزل معي الماء، ولكنْ في حمّام سباحةٍ وليس البحر، لأنها لا تجيد السباحة، في حمام السباحة، لعبتُ مع مهجة وضحكتُ مِن

قلبي، تحرَّشتْ بها وبداخلي إحساسٌ بأنَّ أحدًا لا يرانا، أنا لا أرى الناس حولي، وأشعر أنهم غير مشغولين بنا أو لا يروننا، تحرشتُ بها كأنها واحدةٌ أخرى أعرفها لأول مرةٍ، شعرتُ بقلبِ مراهقٍ مع خطيبته يريد أنْ يظفر منها بأيِّ شيءٍ، أظنها لم تستغرب إحساسي هذا حين وصلها، جارتني في اللعبة ولم تكن غبيةً فتقترح عليَّ أنْ نعود إلى الشاليه، لو فعلتْ ذلك لتخوَّفتُ منها ولزالت رغبتي تمامًا، لم يُرجِعنا مِن الماء إلى الشاليه إلا الجوع، لديَّ رغبةٌ كبيرةٌ في طعامٍ دافئٍ، طلبتْ مهجة رقم محمود السائق وأعطتني التليفون لأخبره بالطعام، شعوري بالعند جعلني أطلب أكلة ديمة المُفضَّلة.

جمبري مشويّ يا محمود، مشوي مش مقلي! وشوربة سي فود مِن الغالية. وعيش قمحي، وطحينة وسلطة خضرا، وحاجة ساقعة.

قبل أنْ يأتي الجمبري كنت أفكِّر في الحَمام المحشوِّ الذي سآكله غدًا بعد تكرار اللعب مع مهجة في حمام السباحة، بداخلي رغبةٌ في أنْ أكون بليد الحسّ، لديَّ اقتناعٌ بأنَّ الموت استهان بي لأني أتعامل معه

بإحساسٍ زائدٍ، هو يلعب معي، يؤكِّد لي أنه الأقوى، وأني ضعيفٌ أمامه، لديَّ رغبةٌ كبيرةٌ في تحدّيه، أريد أنْ أثبت له أنه لا يشغلني كثيرًا، وأني لا أكترث كما يظنُّ لموت نصرة وموت أبي.

مازلتُ أحبُّ ديمة، أحبُّها حبَّ العمى، أحب أبي وأحب نصرة، وأحيانًا أحبُّ عمي عبد الحميد، وبرغم ذلك سأغدر به، وسآتي بمشترٍ لبقية الأرض كلها بمبلغٍ كبيرٍ، الحاج عبد الفضيل عضو مجلس الشعب السابق عن الحزب الوطني لا يترك قيراطًا يريد أحدٌ بيعه، لديه الأموال، ويدفع في الحال، سأحوِّل الأموال كلها على رقم حسابي في البنك، وسأشتري بيتًا في الإسكندرية أو في أكتوبر نكايةً في ذكرى ديمة وذكرى حبها المَقيت، سأعربد في كلِّ شيءٍ حولي، سأفسد الهواء والماء وأفرش الأرض بالثعابين والعقارب، أو سأغطِّيها بالورود، لا أدري، أريد أنْ أتحرَّك كثيرًا في الحياة، أتحرك في كلِّ اتجاهٍ، أحارب الهواء، أنشغل بالحركة والعمل عن الموت، أريد أنْ أتجاهله، وكأنه ضيفٌ ثقيلٌ.

- أنت مزهقتش من اللعب في حمام السباحة؟ بشرتك اسمرّت، وأنا

كمان اسمريت قوي، لو شفت نفسك مش هتعرفها.

اتكَّأتْ مهجة دون قصدٍ على الجرح: «لو شفت نفسك.» لم تدرك خطأها أو تجاهلته، ولم تُرِدْ الاعتذار حتى لا يكون الأمر أكثر قسوةً، سحبتني مِن يدي إلى المطبخ، وطلبتْ تخمين نوع الطعام الذي أعدَّتْه لي دون أنْ تخبرني به كالعادة، تركتُها وعدتُ عبر الطرقة الصغيرة محاولاً تفادي السفرة التي تفصل بين الصالة والمطبخ.

مهجة تتعامل معي كأني عِجْلٌ يعُلف للتسمين، صحيحٌ أنا الذي أوهمتها أنَّ سعادتي في الطعام، نهمي ساعدها على ذلك، ظنَّتْ أني تغيَّرتُ وأصبحتُ أرضى لأقلِّ شيءٍ، فهمتْ مهجة أني تضايقتُ فرجعتْ خلفي وشغَّلت لي التلفزيون وشرعتْ في إخباري ببعض ما لا أرى فيه، مهجة تصبر صبرًا عظيمًا على مزاجي المُتقلِّب، لا تتضجر، دائمًا جاهزةٌ لفعل أيِّ شيءٍ يسعدني، أنا أحبها ولكني أكره العجز الذي يسيطر على كلِّ شيءٍ، أحيانًا أتشكك حتى في الهواء الملوَّن بالأسود أمامي وأضطر لأنْ أعبِّئ منه صدري، أتصور الهواء أمامي مازوتًا أو طينًا أو حبرًا أسودَ.

كلُّ شيءٍ تلوَّن بالأسود، الماء والهواء ورمل الشاطئ وأمواج البحر الهادرة، حتى ذكرى أبي وذكرى ديمة وصور ابني التي لم أعد قادرًا على مطالعتها على الإيميل، كلُّ شيءٍ، أتصوَّر أحيانًا كثيرةً أني سأقدر على تمزيق هذا السواد بأظافري إنْ أنا تشجَّعتُ وتجرَّأتُ عليه، وأحيانًا أتصوَّر أنه الخلود الذي سأبقى فيه، وأحيانًا أتصوَّر أني مِتُّ بالفعل، وأني سأبقى في ظلامٍ سرمديٍّ وفي حياةٍ تجريبيةٍ مِن نوعٍ جديدٍ.

عُدنا إلى المحارب دون الضحكات التي ذابتْ مِنا في مياه حمام السباحة، الآن عرفتُ ميزة أنَّ الاستراحة تقع في أول المحارب وبعيدًا عن البيوت، لم يرنا أحدٌ، وتركنا محمود السائق بعدما تقاضى مبلغ ألفي جنيهٍ عن أيام المصيف الخمسة عشر، لم يرضَ في البداية بألفٍ وخمسمائةٍ، فأعطيته ألفين:

- أي خدمة يا دكتور، لو احتجت أي حاجة اتصل بي في أي وقت. تحت أمرك، وفرصة سعيدة.

- أين الفرصة السعيدة يا محمود؟

حياةٌ غارقةٌ في الظلام يسمِّيها فرصةً سعيدةً، تقريبًا هو يتصوَّر أني ولدت كفيفًا، أصبحتُ أمقتُ كلَّ مَن عرفوني مِن قبل، ويعرفون أني كنتُ أرى مثلهم ويشفقون عليَّ، وأكره مَن لم يعرفوني ويتصوَّرن أني وُلِدتُ كفيفًا، ولا يشعرون تجاهي بأيِّ شفقةٍ.

لم أرَ أكوام الزبالة على طريق الجِمال، ولم أرَ الأرض الخضراء التي تملأ قلوب الناس بالحقد، الحقد يزرع في قلوب الناس وينبت ويطرح بذوره مع البرسيم والذرة، مع كلِّ الزروع يهيج الحقد في القلوب، بدأتُ تدريجيًا أحسُّ أنَّ الظلام الذي أغرق فيه ما هو إلا مساحةٌ فارغةٌ يمكنني تلوينها كيفما شئتُ، تذكَّرتُ أننا لم نتمكَّن مِن شراء أيِّ هدايا أو ملابس جديدةٍ لمهجة من الإسكندرية، تمنيتُ أنْ أتوقَّف عند كارفور ونشتري لها شيئًا، ولكن تذكَّرتُ أنَّ المحلات هناك لن تناسبها، فهي لم تتعوَّد على الملابس الجاهزة وربما يصعب العثور على محل عباءاتٍ جاهزةٍ مناسبٍ.

أول مَن جاء إلينا هو عثمان، أعطتْه مهجة ألف جنيهٍ أخذها ومضى، وفي

اليوم التالي أعطيتُها ألفًا أخرى لتشتري لنفسها بعض الملابس الجديدة، فرحتْ فرح طفلٍ، وتضارب إحساسي ناحيتها، أحيانًا أشعر أنها بقيةُ ميراثي مِن نصرة، وينتابني إحساسٌ بالمسئولية ناحيتها وكأنها ابنتي أو بقية أهلي، بقيتْ مهجة يومًا كاملاً في المدينة مشغولةً بشراء العباءات الجديدة وغيرها مِن الملابس، ثلاث عباءاتٍ تقريبًا، لا أذكر بالتحديد، وبعض البجامات وقمصان النوم، واشترت لي فرخةً مشويةً وبسبوسةً، الأمور مريبةٌ بيني وبين مهجة وصورتها على هذا النحو ستفجِّر لي المشاكل في المحارب، بلد القيل والقال.

أرسلتُ عثمان زوج مهجة إلى عمي عبد الحميد، بعدما قربته قليلاً حتى تبدو الصورة أنَّ عثمان وزوجته يقومان على خدمتي معًا، جاء عمي عبد الحميد، فلبستُ وجهًا خشبيًا يناسب عينيَّ فاقدتي البصر، بدلاً مِن وجهي القديم الخجول، وخرجتُ له بكبرياءَ وشرٍّ يتنامى في قلبي مع الأيام:

- أنا هبيع الأرض كلها، لازمك اشتريها مش لازمك عندي المشتري، دي

أرضي ومحتاج فلوس ضروري عشان أسافر أعمل عملية في الخارج.

تخيَّلتُ شفتيه المفتوحتين أثر الصدمة، لم ينطق.

- أنت ملكش عندي غير أني أبيع لك بالسعر اللي بعت لك به الفدان الأول، يعني أرخص لك ١٠٠ ألف جنيه في الفدان، دا لو عايز تشتري أو تقدر تشتري. لكن غير كدا، مفيش حاجة في الدنيا أولى من بصري، الأرض من غير نظر ملهاش فايدة عندي.

- طب أنت هتحتاج كل الفلوس دي ليه؟ هو السفر والعملية يصرفوا كم؟ أنا ممكن أدبر لك تمن فدان أو اتنين، دا أنا لسة عليَّ فلوس من الفدان الأولاني.

- يعني من الآخر مش هتقدر تشتري؟ خلاص أنا عملت الواجب وعرَّفتك، وفي وقت قريب هبيع.

صمت عبد الحميد مدةً طويلةً وشعرتُ بأنفاسه المزدحمة في صدره، تمنيتُ له الموت، حتى أزداد تحديًا للموت به، ولأثبت للموت أني لا أهابه حتى لو اختطف أقرب الجالسين مني، طال صمته منتظرًا جديدًا

obeikan.com

مني، ولكني كنتُ حاسمًا، وتركته وحاولتُ أتلمَّس طريقي إلى المطبخ أفتح الثلاجة.

- صحيح كلّ ذي عاهة جبار!

نطقها عبد الحميد بغلٍّ وهو يجرجر غيظه وعجزه ويخرج مِن الاستراحة، رددتُ بصوتٍ عالٍ:

- لازم أكون جبار على أمثالك.

لم تَعُدْ كلمات عمي عبد الحميد قاسيةً مثل السابق، لم أهتزَّ وأجبتُه بثباتٍ وصلابةٍ، شممتُ رعبه وخوفه على مصير الأرض، الآن تيقَّن أني عازمٌ على البيع لغيره، أشعر أنني أزداد بمرور الأيام تبلدًا وقسوةً مُحبَّبتيْن إلى قلبي.

جسمي يزداد وزنًا وجلدي أشعر به يغلظ مع الأيام، أدركتُ الآن أنَّ ضعفي كان في جمال العيون التي لم أعد قادرًا على رؤيتها، ضعفي كان في إحساسي بالخدود وجمالها، في رؤيتي للدموع مبللةً للرموش، الآن لم أعدْ أرى، لا رقبةً طويلةً أو قصيرةً ولا أردافًا، فقط أحيانًا أمسك

obeikan.com

بأرداف مهجة، ولكنَّ الرؤية شيءٌ آخر، لم أعدْ أرى الورود أو الخضرة أو تناسق الزروع في الحقل، أصبحت أتعاملُ مع عالمٍ يُخفي عني جماله فأخفيتُ منه إحساسي المرهف الذي كان سبب ضعفي، لم أعدْ خائفًا مِن أيِّ شيءٍ، لا مِن موتٍ ولا مِن فراقٍ ولا مِن بُعْدٍ، كلُّ شيءٍ صار قريبًا بعيدًا، حولي ولا أراه.

تركيزي الآن مُنصبٌّ على ألا يستهين بي أحدٌ، لا أريد لأحدٍ أنْ يستشعر شيئًا مِن ضعفي، إنْ ظهر لهم سيستهين بي الموت كذلك، لم أَعُدْ أقرب مهجة، والغريب أنَّ سعادتها لم تنتقص، أدركتُ الآن أني لم أحبَّها، لا بل أحبُّها، لأنها لو لم تكن معي الآن لَما أدركتُ هذه الحقيقة، ميزة مهجة العظيمة أنها بجانبي الآن، تملأ حياتي كالعمى، مثل ديمة تمامًا التي تسدُّ جروح روحي وتملؤها، ذاكرتي مكلومةٌ بسبب ديمة وحاضري أعمى دون سببٍ، أصبحتْ تُعِدُّ لي الطعام وتنظِّف الاستراحة وترتِّب السرير، وتخرج تنام في الصالة على مَرتبةٍ صغيرةٍ، خادمةٌ بجسدها، صاحبةُ بيتٍ بروحها ومرحها، ورغبتها في البقاء معي.

في مساء ليلةٍ بعد أسبوعٍ تقريبًا مِن زيارة عبد الحميد الحاسمة بشأن الأرض، جلستْ مهجة بالقرب مني لتخبرني بقصة فهيم النادي، وكيف أنَّ زوجته تركته بولديْها وهربت.

- بس مرات فهيم أنا أعرف أنها قريبته يا مهجة ومن المحارب، هربت راحت فين؟ الله يخرب عقلك! هو فهيم خلّف أصلاً، أنا أعرف أنه مكنش بيخلف!!

- يا أستاذ حميد أنت تقصد مراته القديمة ودي طلقها، إنما دي واحدة تانية أتجوزها من قريب، من حوالي أربع سنين والا خمسة، والله ما أعرف. وخلفت منه ولد وبنت، وصغيرة، أكبر مني يمكن بسنة والا اتنين بالكتير، كان بيشتغل في الخطاطبة في المزارع وعرف أهلها وأبوها، أبوها غفير مزرعة جنبه، خدت الولد والبنت وسافرت وهو شغال في الغيط بالأجرة، سأل عنها في بلدهم، وراح لأبوها في المزرعة في الخطاطبة، قال له مشفهاش.

طلبتُ مِنها أنْ تذهب لفهيم غدًا وتخبره أني أريده، جلس فهيم يحدِّثني

وكأنه فهم ببديهته أني أريد التسلية مقابل الغداء معي، أو منحه أجرةَ يومِ عملٍ في الغيط، قصَّ عليَّ يوم ذهابه إلى والد زوجته الجديدة أثناء عمله في الخطاطبة وحين طلب فهيم الزواج مِن ابنته المُطلَّقة الأصغر مِنه بأكثر مِن أربعين عامًا طلب مِنه الرجل ثلاثة آلاف جنيهٍ مهرًا فقال له: «سبعمائة جنيه تملؤها ملوًا.» كأنه ذهب للسوق ليشتري نعجةً صغيرةً، وأصرَّ على هذا المبلغ ولم يدفع أكثر مِنه، زوجته الجديدة شابةٌ جامحةٌ وجميلةٌ ترغب في المتعة وهو جاوز الستين، فرح كثيرًا حين حملتْ مرةً والثانية، وكان قد يئس مِن أنْ يكون له ولدٌ، زوجته الأولى ابنة عمته، وعاشا معًا بحبٍّ مدةً طويلةً جدًا، صبرا فيها كثيرًا على عدم الإنجاب وطلَّقها بعد إصرارٍ مِنها حين عرفت بزواجه، وذهبتْ لتسكن مع أخيها في بيته.

أخبرني أنَّ زوجته القديمة ذات مرةٍ ذهبتْ لبيت أبيها غاضبةً وهم في أول زواجهما، ففكَّر في حيلةٍ يُرجِعُها بها، كانت الأضواء بلمبات الجاز ذات الطربوش الزجاجيّ، إضاءةٌ خفيفةٌ في الحجرة الطينية، وتعمَّد هو ألا يلبس شيئًا تحت الجلباب تاركًا عورته دون قيدٍ.

وحين جاءتْ زوجته الغاضبة تصبُّ لهم الشاي أمسك يدها في الظلام ووضعها على عضوه، فما لبثتْ أنْ قالتْ لهم إنها ستذهب مع زوجها ونسيتْ تمامًا ما أغضبها، أضحكني فهيم هذه المرة، له أسلوبٌ بديعٌ في حكاية النوادر، ذهنه مرتبٌ وروحه عنيدةٌ، ويضحك برغم اليأس الذي يسكن عينيه، رجلٌ مسنٌّ يرزقه الله بالولد في سنٍّ متأخرةٍ بعد يأسٍ، وتهرب زوجته الشابة بابنيه ومع ذلك يقدر على الضحك!

أخبرني أنه بحث كثيرًا عن زوجته المختفية حتى يئس، وحين جاء أحد العرَّافين أو النصابين إلى المحارب طلب منه أنْ يعطيه ألف جنيهٍ ليعرف له مكان زوجته، فباع نعجةً لديه وأعطاه الألف، ووعده أنْ يخبره بعد أسبوعٍ، وحين عاد إليه مرةً أخرى طلب منه ألفًا ثانيةً لأنها اختفتْ في مكانٍ قصيٍّ عصيٍّ.

- ابن الكلب فاكرني زارع الفلوس قدام الفرن وبحصدها كل صبح! ابن كلب طماع يا بيه، أنا رحت المركز وعملت له محضر.

ضحكتُ بصوتٍ عالٍ جدًا، لأول مرةٍ أعرف أنَّ صوتي مُزعجٍ حين أضحك

مِن القلب هكذا، أشعرني كلام فهيم بالتبلُّد وبالسعادة وبالرضا، فهيم ناقدٌ ناقمٌ على أشياءَ كثيرةٍ في تصرفات الناس، ولكنه لا يحقد على أحدٍ أو ينظر إلى ما في أيديهم، اتفقتُ معه أنْ يأتيني في اليوم التالي ليجلس معي إنْ لم يكن لديه عملٌ، وجاء بالفعل، وتحدَّثنا وضحكنا، وأكلنا.

أرسلتُه إلى عمي عبد الحميد ليعرف رأيه النهائي في شراء الأرض، تركتُ له مهلةً كافيةً.

جاء فهيم وأخبرني أنه لن يشتري، شعرتُ بالتناقض والعجز، أريد ثمن الأرض ولا أقدر على التفريط فيها، أرسلتُ لأخوتي لأعرف رأيهم وإنْ كانوا يقدرون على شراء أيِّ شيءٍ منها، جاء حمد، الأقل سؤالاً عني، ولمح إلى أنهم لا يقدرون على الشراء، وأفصح عن رغبتهم في بعضها، ولمح لأنَّ البيع سيؤثِّر على عائلتنا أمام البلدة كلها، وأنَّ هذا سيضرُّ بأصلنا وتاريخنا.

- هتلف الأيام وهنبقى أفقر خلق الله في البلد يا دكتور، فكّر شوية قبل

ما تبيع، بيع قليل بقليل، مش لازم تبيع كتير. اصبر أفضل.

أصبح فهيم يأتيني بشكلٍ مستمرٍّ، يحكي لي عن البلدة قديمًا، يعرف تاريخ عائلاتها جميعًا، ويعرف فروعهم ومَن مات ومَن بقي، ومَن السابق ومَن اللاحق، يخبرني عن جدي الشيخ أحمد الشافعي، يخبرني عن نصرة، لديه القصص عن كلِّ الناس.

- أنت كنز يا عم فهيم.

- يا بيه أنا عندي كشكول مسجل فيه كل وفيات البلد باليوم والتاريخ، ولما كنت بسافر أشتغل في المزارع في الإسماعيلية أو الخطاطبة كنت آخد معي الكشكول وأسجل فيه لما أعرف بأيّ حالة وفاة. جدك الشيخ أحمد الله يرحمه كان رجل طيب، مات اتنين وسبعين تقريبًا قبل حرب أكتوبر بسنة واحدة، ونصرة ماتت سنة ألفين واتنين، الشيخ محمد الشافعي أبوها مات بعد جدك الشيخ أحمد بخمس سنين. طب أيه رأيك كمان أني بكتب شعر؟ ومرة المحافظ جه عشان يفتح محطة المية قلت فيه شعر، وكل الشعر مكتوب. أنا بس كان نفسي ألاقي أولادي

obeikan.com

وأعلمهم حاجة يفتكروني بها بعد ما أموت، عايز أعيش معاهم ولو أيام. أمهم مقدرتش تستحمل عجزي.

يا بيه أوعى تكون فاكر نفسك عاجز لا قدر الله عشان فقدت البصر، العجز هو العجز في السرير أو عجز الجيب لما يكون مفيهوش ولا مليم، الغني واللي صحته حلوة عمره ما يكون عاجز أبدًا.

فهيم يضع لي النقاط على الحروف بحسمٍ، يفصح بشكلٍ مباشرٍ، ويحاول أنْ يتقمَّص دور الطبيب النفسيّ ويبثّ فيَّ الثقة في النفس، يحسمها بأنَّ العجز هو ما عاشه مِن ضعفٍ مع زوجته، سواءً بالفقر أو بفقد القدرة في السرير، الآن يا فهيم أنا لا أكترث لأحدٍ، لا يعنيني إلا جسدي الذي يتضخَّم وجلدي الذي يتبلَّد، المشكلة أني لم أَعُدْ أقلق مِن تزايد حالة التبلُّد، صرتُ أقرب للآلة، ذاكرتي لم تعدْ تذهب للبعيد كما مِن قبل، وحتى إنْ عدتُ للقديم لا يسيطر عليَّ الشجن والحنين، أسمع مِن فهيم بعض قصص جدودي وأتعامل معها ببرودٍ، وكأنها لا صلةَ لها بأصلي.

بقيتُ مدةً طويلةً حائرًا بين بيع الأرض وبين تركها، بهتتْ رغبتي في

استعادة البصر، لا أريد المجازفة بفقد المال هو الآخر.

فهيم لا يأكل بنهمٍ، جسمه نحيلٌ وطويلٌ ويتقوَّت مِن الطعام بما يكفيه فقط، يصلّي باستمرارٍ، أجبرني الجلوس معه والحرج على الذهاب معه للمسجد أكثر مِن مرةٍ، بدأتُ أصلي بانتظامٍ وآليةٍ ورتابةٍ، ولم أعدْ أقرب مهجة حتى اشتقتُ إلى جسدها بشكلٍ غريبٍ، ولكني لا أستطيع المغامرة بالاقتراب منها، أصحو مِن النوم وبين رجليَّ انتفاخٌ كبيرٌ، أشعر كأنَّ ما بين رجليَّ سينفجر، كأني عُدْتُ مراهقًا، فكرتُ في صوم بعض أيام التطوع ولكني لم أحسم الأمر.

بعد أسبوعين جاء حمد وطلب أنْ يشترى لنفسه مني فدانًا بخمسين ألف جنيهٍ فقط، وحين قلت له إنَّ هذا تقريبًا خُمس ثمن الفدان، ثمنه الحقيقي أكثر مِن مائتين وخمسين ألفًا، قال إنّ هذا أقصى مبلغٍ استطاع جمعه ببيع مواشٍ لديه وبيع مصاغ زوجته واستدان الباقي، زاد في آخر الجلسة عشرين ألفًا أخرى، ولكني رفضتُ بحسمٍ، لم يَعُدْ يشغلني أحدٌ، لا أَرِقَّ لأصلٍ أو تاريخ عائلةٍ، المال هو المال، ومَن أراد شراء أرضٍ عليه

أنْ يدفع مهرها.

مضى غاضبًا حانقًا أمّا أنا فلم أهتزَّ، اتصلتُ به بعدها بأيامٍ وأخبرته أني قد أبيع له نصف فدانٍ بالسبعين، لن أزيده قيراطًا عن هذا، جاء سريعًا، وذهبتُ معه أنا وشيخ البلد وفهيم ليقيس له الأرض، أصبحتُ أثق في فيهم كثيرًا، تحسَّستُ الأحجار التي وضعوها للحدود، وعلَّمتُها بخطواتٍ مِن النخل، وأمرتُ عمي عبد الحميد بأنْ يسلِّمه نصف الفدان عقب فراغ الأرض مِن الذُّرة التي أوشكتْ.

أخذتُ مِنه الثمن وأودعته في البنك في اليوم نفسه، واشتريتُ جلبابين لفهيم وأعطيته مائتي جنيهٍ ففرح كثيرًا، وأوشك أنْ يطلب مِني أنْ أعيد له زوجته، أحسستُ بالكلمات في قلبه وهو يَحْبِسُها ويمنعها مِن الانفلات.

فهيم يتصوَّرني قويًا جدًا، أملك كلَّ شيءٍ برغم أنه يَسْحَبُني وراءه في أوقات الصلاة ويرشدني لأطباق الطعام حين يأكل معي؛ «هذا طبق بطاطس على يمينك، وهذه الملوخية على يسارك، وهذا الأرز في الوسط وبجانبه اللحم.» تعوَّدتُ على سماع أخبار القتل في اشتباكات

الإخوان المسلمين مع الأمن، وفي اقتحام أقسام الشرطة وأخبار بعض التفجيرات التي بدأتْ تتناثر في الأخبار، صوت الراديو يأتيني باردًا برغم ما يحاول المذيع بثَّه مِن الحزن والأسى على أرواح مَن ماتوا في تفجيرٍ هنا أو استهدافٍ للجنود هناك.

سمكةٌ عالقةٌ بصنارتين؛ علقتْ بصنارةٍ واحدةٍ ورغبتْ في الفِكاك مِن الأولى بالثانية فصارتْ عالقةً في الاثنتين، لم تتحوَّل الأمور إلى الأحسن وأظنُّ أنَّ حياتنا كالدمينو المرصوص، يتداعى حتمًا كلّه إذا سقطتْ واحـدةٌ، وتسقط الأخيرة حين تسقط الأولى، لا أدري ما هي قطعة الدمينو الأولى في حياتي؛ هل هو موت أبي أم موت نصرة أم زواجي مِن ديمة أم هروبها بابني سليمان أم موت كميل أم سقوط مبارك ومشاركتي في ثورة يناير أم هو وجودي أصلاً في دنيا نصرة وديمة وسليمان وأسمى وحمد وكميل؟ النهاية هي أننا أصلاً وُجِدْنا، ليتنا لم نكن! زادت الحيرة بالعمى.

لا أنكر أفضال العمى عليَّ، كَلّا، لم أكن يومًا ناكرًا لجميل أحدٍ عليَّ، حتى

أسمى لا أذكر أنْ تنكَّرتُ لأيِّ فضلٍ أو سوءٍ جاءني منها، العمى مدَّني بشيءٍ عزيزٍ كنتُ في أمسِّ الحاجة له وهو التبلُّد، لم يَعُدْ قلبي يَرِقُّ للأشياء كما مِن قبل، أو بالأحرى لم يعد أهبل وساذجًا بما يكفي، صار أكثر تماسكًا، أكثر جَلَدًا، صار قلبي وجلدي أقوى مني، وصرتُ شخصين؛ شخصًا قديمًا يحيا في الذاكرة طفلاً رقيقًا، وآخر ليس بليدًا أو قاسيًا أو أنانيًا بل لديه مِن الجَلَدِ والصبر ما يحتاجه مَن يحيا في المحارب، مَن يسمع نشرات أخبار التلفزيون المصري، ويسمع الإذاعة المصرية، مَن يسمع بالأحرى أخبار الوطن العربي وانقساماته إلى عزب وقرًى صغيرةٍ في وقتٍ يتحوَّل فيه العالم إلى كتلةٍ واحدةٍ.

الشيء الوحيد الذي يرغِّبُني في الإبصار مرةً أخرى هو عملي، لا أتصوَّر حتى الآن كيف سأكون أضحوكة الطلاب في المحاضرات، سينكَمِدُ قلبي لهمسهم ووشوشاتهم، سينكمد لعجزه عن أنْ يبصر الوجوه المبتسمة لعجزي مُرحِّبةً به ليزيد حياتهم دراما على دراميتها، مُدرَّجات الجامعات المصرية مثل شوارع القاهرة، تحديدًا مثل شارع طلعت حرب أو شارع شريف في التحرير، سيصير العمى فضيحةً.

الأيام تمرُّ سريعًا ولم أَعُدْ قادرًا بعدُ على حسم أمري، بقيتُ عالقًا بين الحياة والموت كما كنتُ، وزاد تورُّطي بالعمى، أضحيتُ كذلك عالقًا بين العمى والإبصار، بين ديمة في أمريكا وأسمى ومهجة في المحارب، بين عِنْدي لموت أبي وشهداء السياسة في الجنة وبين حمد وعبد الحميد الوارثين لكلِّ ميتٍ.

أستطيع الآن أنْ أعترف بأنَّ المُحرِّض الأول على تسجيل حياتي على الأوراق هو إيماني بأني هُزِمتُ تمامًا، وإيماني بأنَّ الحياة حين تنوي وضع القيود في الأيدي لا تفكِّر أنْ تنزع منها واحدًا أبدًا، لم تكن فكرتي في أنْ أسجِّل قصتي إلا تمردًا على قيود الحياة التي تزيد، ولا أَمَلَ في أنْ تنقص أبدًا.

لا أَمَلَ في أنْ تخفَّ حدَّة الظلام.

تمت بحمد الله

opelikan.com

التعريف بالمؤلف

كاتب وروائي مصري حاصل على دكتوراه اللغة العربية من قسم الدراسات الأدبية كلية دار العلوم جامعة الفيوم ٢٠١٣م بمرتبة الشرف الأولى.

مدرس الأدب العربى بجامعة الفيوم.

حاصل على الجائزة الأولى فى المواهب من المجلس الأعلى للثقافة فى مصر عن رواية شرود أبيض.

مؤلفاته:

ذات النقاب الزنجية – قصص ٢٠١٠.

البناء القصصى فى شعر أبى نواس – نقد ٢٠١١.

نصف يوم – رواية ٢٠١٣.

شرود أبيض – رواية ٢٠١٤.

obeikan.com

للاطلاع على أحدث إصدارات مؤسسة إبداع

يرجى زيارة الموقع الإلكتروني

www.prints.ibda3-tp.com

obeikan.com